أين الكموني!

www.kotobarabia.com

د. إيهاب سلام

أين الكموني؟

رواية

د. إيهاب سلام

فهرس

الفصل الأول

ركب القطار من القاهرة إلى أسوان، نُقل إلى مستشفى النيل الحكومي بأسوان، بعد أن أمضى زهاء عشرين سنة في مستشفى حكومي آخر في العاصمة. لم يكن مغروراً، إنما كان متباعداً، وظن زملاؤه أنه مترفع عنهم، فدسوا له، لم يقبلوا منه هذا الترفع، ودسوا له لدى رؤسائه بصفات ليست فيه، مثل معاملة المرضى بلا رحمة، ومعاملة الممرضات بقسوة، وعدم التعاون مع الزملاء، غير أن الرؤساء لم يكونوا يرون فيه ذلك، كان أدبه الجم، ووقوفه في حضرتهم باحترام، وسماعه للأوامر، يشككهم فيما يدسون له، وهو فوق ذلك طبيب نابه ذكي، يدرس بصبر وجلد، غير أن تباعده عن رؤسائه أوغر صدرهم ضده، وشج شقة الخلاف بينه وبينهم.

استغرب عادل نصرت الكموني أن يكون الانعزال عن شر الناس اصبح صفة مذمومة في الفرد، ورغم ذلك لم يهتم، وهاهو تم نقله مدير المستشفى الحكومي بأسوان، فهذه ترقية وعليه أن يتجرد من طبع الانعزال. واستقبله الحر اللافح

الذي لا يطاق صيفاً، وسوف يستقبله البرد الشديد في الشتاء، ولن يكون هناك فاصل بين الربيع والصيف، أو فاصل بين الخريف والشتاء. وعليه أن يتحمل الأمر مادام كان منعزلاً، لا يتقرب إلى الرؤساء.

استعرض عادل نصرت الكموني أسماء الأطباء والطبيبات، استلفته اسم طبيب: نصير نصرت الكموني. ضحك.. أيكون أخي؟.. وكيف لا يكون أخاه، إنه لم ير أباه، فقد بذر بذرته في أمه واختفى، ثم عاد إليها وبذر بذرة أخي أحمد نصرت الكموني واختفى. وفي المرة الثالثة لما عاد أنجب سعاد نصرت الكموني ثم اختفى إلى الأبد كأنه لم يعد يطيق هذه المرأة الولود كلما التقى بها أنجبت. ولعله تزوج في مكان آخر وأنجب نصير نصرت الكموني.

استدعاه ليراه، شاهد عجباً. شاهد ملامحه وهو صغير ماثلة أمامه لكن على وجه أسمر. إنه شاب في الثلاثين من العمر، وهو يدنو من الخمسين. سأله: اسمك يا دكتور نصرت نصير الكموني؟..

قال بأدب: نعم. سأل الدكتور عادل بفضول: هـل نحـن أخوان ولكن الأم مختلفة؟.. أنـا اسـمي عـادل نصـرت الكموني؟..قال بتواضع: لا أعرف. ما اسمك الرابع.

قال عادل: اسمي عادل نصرت أمين الكموني.

قال: إذن فالوالد واحد لأن اسمي نصير نصـرت أمـين الكموني. سأل عادل: هل والدك على قيد الحيـاة؟.. أجـاب نصير: وهو يشد مقعداً ليجلس عليه: لا أعرف.. ربما.

سأل عادل بفضول: ماذا كان يعمل؟..

قال نصير: الحقيقة. قالت أمي إنه كان يعمل مندوباً لبيـع المواد الاستهلاكية.

سأل عادل: وأين هو الآن؟..

قال: لا أعرف.. اختفى بعد أن أنجبت أمي أختي زينب.

قال عادل: ربما يكون هو أبي.. تزوج أمي منذ أكثر من خمسين سنة. ولما أنجب سعاد أختي اختفى. لـي أخ آخـر اسمه احمد.. يعمل في الصحافة. والأخت تعمل فـي أحـد المصارف. وماذا تعمل أختك؟..

قال نصرت: تعمل مدرسة.. في مدرسة أسوان الثانوية.

سأل عادل: وهل أنتم من أسوان؟..

قال نصرت: نعم.. ألا تراني أسمر اللون.. وأبـي كـان أبيض اللون..

قال عادل، وهو يهز رأسه: نعم.. قالت لي أمي أنه كـان أبيض اللون.. طويل القامة.. عريض المنكبين.. شاربه كثاً. ولا لحية له.

قال نصرت: إنها أوصاف أبي بالفعل.

قال عادل: إذن أنت اكتسبت سـمرة أمـك.. هـل هـي أسوانية؟.

قال نصرت: نعم.. ولم تغادر أسوان أبـداً.. تزوجهـا.. وكان يأتي إليها من حين لآخر.. ثم تركها بعـد أن أنجبـت أختي زينب.

تساءل نصرت بعد ذلك: هل له في كـل محافظـة أولاد وبنات؟..

قال عادل: بعد أن اكتشفت أنك أخي.. لا استبعد أن يكون لي أو لنا في كل محافظة أخـوة وأخـوات. ولعـل عملـه كمندوب مبيعات سمح له أن يتزوج في كل بلد ليجد المـرأة التي تروقه وإذا ما أنجبت زهدها. أليس هذا هو النسق الذي تحقق معنا ومعكم؟..

سأل عادل: وفيم تخصصت يا دكتور نصير؟..

قال: تخصصت في أمراض باطنة.. أعتقـد أن سـيادتك تخصص أمراض كلى..

قال عادل: نعم.. تخصصت فيها لما ألم بأمي مرض فـي الكلى. ولما أحتار الأطباء فيه، عالجوهـا طـويلاً، حتـى شفيت، لكن وجدت أنها عضو هام في الجسم يجب التفـرغ لدراسته، وتعمقت في دراسته حتى حصلت على الدكتوراه.

قال نصير: لقد فرغت من الدبلومين العاليين في أمراض الباطنة. وعلى وشك أن أسجل للدكتوراه لكن المعوق الوحيد هو التفرغ فالبعد بين القاهرة وأسوان أو بين أسيوط وأسوان يجعل الأمر مستحيلاً.

قال عادل: لا تخش شيئاً. أنا معك.. ومع كل من يتعمـق في دراسة الطب. إذ أن التعمق في دراسة العـلاج والـدواء مفيد للإنسانية جمعاء.. وربما تكون على يدنا نحـن عائلـة الكموني نهضة علمية بإذن الله.

قال نصير: بإذن الله.

الفصل الثاني

بدافع الفضول فقط قبل دعوة نصير نصـرت الكمـوني. يريد أن يقارن بين ذوق الكموني في اختيار أمه وفي اختيار أم نصير. وعده نصير أن يأكل خضاراً وأرزاً ولحما أسوانياً بدلاً من أن يأكل من السوق، وذلك لأنه - كما يبدو - قرف من أكل الفندق الذي ينزل فيه، وهو سكن حكومي للمستشفى للعزاب فقط والوافدين إلى أسوان فقط. كان يريد أن يتعرف على الزوجة الثانية لأبيه الذي لم يره أو على الأقل لا يعـي صورته. فقد ترك أمه وهو في الثالثة من عمره. كيف لطفل في الثالثة من العمر أن يذكر صورة أو صوت أو هيئة أبيـه الذي تركه؟..

كانت المرأة مليحة، تلك التي استقبلته بتواضع، فعرف أن ذوق أبيه لم يكن ركيكاً. قدمت إليه زينب أخت نصير، كمـا قدمت له أختاً لهما من زوج ثان. إذن فهي طلبـت التطليـق منه، وتزوجت. وأخبرته المرأة أنه بعد أن غـاب نصـرت الكموني – زوجها الأول – استمر الحال على ذلك زهاء أكثر من سبع سنوات، وتقدم لها تاجر يعرف حالتها، عطف عليها قبل طلاقها، واستمر يعينها في العدة، وصرف على الوالدين

حتى شبا وتخرج نصير من كلية الطب، وتخرجت زينب من كلية الآداب، وهاهي عزيزة تتخرج من كلية الحقوق، تبدو في الثانية والعشرين من عمرها، اكتسبت سمرة أمها مثلما اكتسبها نصير وأخته زينب. لم يتمكن الأخوان من اكتساب بياض أبيهما. لكن الأم كانت داكنة اللون عنهم جميعاً. وبدا له أن الزوج الثاني كان يميل إلى السمرة فقط. وأين هو الآن؟.. سمع الأم - أم نصير - تترحم عليه فقد مات منذ سنة. وآلت تجارته لأخيه وابنته مناصفة.

قال عادل متشككا: لا أعرف في الحقيقة ما إذا كان أبي نصرت أمين الكموني هو والد الدكتور نصير وزينب أم لا؟.. لكن حسب الأوصاف التي أدلى بها الدكتور نصير أميل إلى أن الأبوين واحد.

قالت أم نصير: إن نصير لم ير أباه. لقد عاش معي زهاء سنتين أو أكثر.. فلما رزقت بزينب لم أعد أراه.

قال عادل مبتسما: يبدو أن ذلك أيضاً ما حدث مع أمي. حينما رزقت بأختي سعاد. لم تعد تراه. أيكون هناك عداء بينه وبين الإناث؟..

تساءلت المرأة: كيف ذلك وهو يتزوج منهن؟.. لكن ألـم يظهر في حياتكم بعد ذلك؟..

قال عادل: أبداً.. ولا مصادفة.

سألت المرأة: إن من ربى أولادي هو زوجي الثاني. فمن الذي رباكم يا ولدي.. يا كبدي عليكم.

قال: تستغربين فعلاً.. لكن ما حدث هو أن أمـي قامـت بدور كبير في هذا الشأن.. لقد خرجت من البيـت لتعمـل. كانت تنتقل من عمل إلى آخر. وبعد ذلك تفرغت للتجارة. قد تظنين أنها تاجرت في الفجل والجرجير. لا.. تـاجرت فـي المواد الغذائية. وتوسعت في المحل الذي تستأجره وضـمت إلى محلها المحلات المجاورة. حتى أصبحت معروفـة فـي الحي والسوق الكبرى. وكل ذلك ونحن نجتهد في دروسنا. كانت قوية الشخصية لدرجة أننا كنا نهاب دخولها ولا نترك الكتاب من أيدينا. علمتنا كيف نستذكر وراقبتنا رغـم أنهـا جاهلة. وصرنا على صراطها لا نحيد عنه. إنهـا لا زالـت تعمل رغم أنها تدنو من السبعين من عمرها. تريد أن تصفي أعمالها لأن الكبير - أنا - يعمل طبيبـاً. والثـاني يعمـل

صحافياً والثالثة - وهي أختنا الوحيدة - تعمل في مصـرف من المصارف.

قالت الأم تفتخر: شيء يفرح القلب.

سألت عزيزة: لكن كيف السبيل إلى إثبات أنكـم أخـوة. أولاد وبنات الكموني؟..

قال الدكتور نصير: ربما عن طريق الدم. ولو أنه ينفـي ولا يثبت.

قالت عزيزة: لا أفهم.

تدخل الدكتور عادل وقال: هناك حاليا دراسة في الخلايا. جينات الخلايا. تسمى D.N.A لو كانت متشابهة لدل ذلك على أننا أخوة. لكن ما أهمية ذلك؟.. يحدث النزاع في حالة وجود ميراث. والأب غائب. بل لا تُعرف له ثروة. وإذا مات أحدنا ورثه أخوته من الأب والأم. ثم من الأب. ولا سبيل للورثـة لأننا أيضاً لا نملك شيئاً حتى الآن.

ضحكت عزيزة وقالت: ذلك يحتاج إلى إزاحة كل الورثة من جانب الأم والأب إذا مات أحدكم ليرثه الآخر. ولكن إذا للشخص المتوفى ابناً فلن تفلح الإزاحة. هل لديك أبنـاء يـا دكتور عادل؟..

قال الدكتور عادل ضاحكاً: أبداً. شغلني العلم والعمل عن الزواج. لقد بلغت الخمسين الآن ولم أتزوج.

قالت عزيزة: خسارة أن تدفن شبابك هكذا.

تأملها الدكتور عادل طويلاً: الفرق بينها وبيني ربما أقل من ثلاثين عاماً هي مليحة لكن هل تقبل أن تتزوج رجلاً في الخمسين وهي لم تصل بعد إلى الثالثة والعشرين؟..

قال الدكتور نصير: الرجل يمكن أن ينجب في أي سن.

سألت عزيزة: هل تزوج نصرت أمين الكموني بأخريات بعد أمي وأم سيادتك يا دكتور عادل؟..

قال: لا أعرف. يمكن الآن أن أعرف لو أرسل مثلاً إخطاراً إلى أمي وهو الآن ربما في الخامسة والسبعين أو أكثر.. إخطار بأنه يتزوج حتى لا يتعرض للمساءلة إذ حتى الآن لم تطلب أمي التطليق..

قالت عزيزة: لا أعتقد أنه سوف يخطر المأذون بذلك حتى الآن لا يزال يستعمل البطاقة الشخصية ولم يفكر في استخراج بطاقة عائلية حتى يتلافى رفض العروس.

قال نصير: لعله توقف يا عزيزة بعد أن تـزوج الأربـع حسب الشرع. ولا يدري أن أمنا طلقته بحكم المحكمـة. أي أن هناك ثلاثاً على ذمته.

ضحكوا جميعاً. بينما قامت أم نصـير لتحضـير وجبـة الغداء التي وعد بها الدكتور عادل.

نظر الدكتور عادل إلى عزيزة وسأل: هل لديك عـروس لي؟..

قالت: أسوانية أم من القاهرة؟..

قال الدكتور عادل: وهل الإنسان في هذه السـن يضـع شروطاً يا عزيزة؟..

قالت ضاحكة: أنا الآن أمامك.. حقيقة أنني أخت أخيـك. لكن أجوز لك.

ضحكوا لخفة دم الفتاة. رد الدكتور عادل: أنت صغيرة يا عزيزة. فرق كبير بين سني وسنك.

قالت: لا أهمية للأمر. المهم هو أنني أريد وأنت تريـد. والله يفعل ما يريد.

قال الدكتور عادل: إن أول المعترضين سيكون عمـك إن لم تكن أمك. وأنا لا أقبل أن أضع نفسي في هذا الموضع.

قال الدكتور نصير: هناك طبيبات لم يتزوجن كثيرات في المستشفى يعملن معنا. لم لا تفحص واحدة منهن وتسألها إذا أعجبها أن تتزوج منها؟..

قال الدكتور عادل: أخشى أن ترفضني.

قالت عزيزة بروحها المرحة: لو كنـت سـوف تضـع العراقيل أمام نفسك هكذا فلن تتزوج أبداً.

نادت الأم على البنتين ليساعداها في تحضير المائدة.

سرح الدكتور عادل بفكره. هل حقاً العلم والعمـل همـا اللذان عرقلا زواجي حتى الآن؟.. إن عيبك الوحيد كـان إذا شاهدت امرأة تفكر فيها ثم تبدأ في اكتشاف عيوبهـا حتـى تزهدها . فلا العلم ولا العمل كانا سبباً في تأخير زواجك يـا دكتور.

لا أهمية للزوجة الآن. لم يعد الدكتور عادل يفكر فيها بعد أن تخطى الخمسين. ومرت عليه فتيات كثيـرات. طبيبـات وممرضات. إن مهنة العلاج والطب تزدحم بالإناث. رغـم ذلك لم ينشغل بامرأة. ولو أن بعض النساء شُغلن به أنفسهن وطاردنه وهو في مقتبل شبابه. ولما وجدن منه إعراضـاً - لا يعرفن سببه - نبذنه. وتركنه في عزلته إلى الأبد. بعكس أخيه الصحفي أحمد الكموني، فقد كان لا يفتأ يقابـل النسـاء ويواعدهن. ويقول: مادمت حياً فالنساء حياتي. غير أنه مثله لم يتزوج رغم أنه دنا من الثامنة والأربعين. ولكنه محـافظ على رشاقته مغرم بالرياضة بعكس عادل فهو كسول، حتـى سمع من يقول عنه أنه " بروتة " ويميل إلـى البدانـة. أمـا الأخت الصغرى فقد تزوجت مبكراً ولديها أولاد ثلاثة.

انتشل نفسه من أفكاره، لمـا أطرقـت البـاب ممرضـة أسوانية، سمراء، عيناها واسعتان، وشعرها مجعد، تلمه خلف رأسها، نظيفة الثياب، تبدو كملكات الجمال اللواتي ليس لهن حظ من الشهرة. وقالت: حالة مستعجلة يا دكتور. مـريض يعاني من فشل كلوي.

نهض بخفة، رغم ثقل وزنه. وارتدى معطف المستشفى الأبيض، وتوجه إلى قسم الكلى لينظر في حالـة المـريض. وجد عنده عامر طبيب الأطفال واقفاً ينتظر قدوم الطبيـب. سأله: ماذا تفعل هنا يا دكتور عامر؟.. قـال عـامر: هـذا المريض أبي. جئت معه بصفتي ابنه. قال الدكتور عـادل: اسمح لي أن أكشف عليه. قال: إنه في غيبوبة يـا دكتـور. ابتسم عادل وقال: وهل هذا يمنـع مـن الكشـف عليـه؟.. اضطرب عامر وقال وهو يتنحى: تفضل. تباعد عامر عـن موقع الكشف وصار ينتظر من بعيد. يترقب في قلق.

أمر الدكتور عادل بإجراء اللازم من فحص للبول وإجراء أشعة على الكليتين وقياس الحرارة وضغط الـدم وفحـص وظائف الكليتين. ثم قرر في النهاية: سوف أجري له غسيل للكليتين ولكنه يحتاج إلى زرع كلى جديدة يا دكتور عـامر. لقد أثبتت الفحوصات أنه يعاني من فشل كلـوي حـاد فـي وظائف الكلى اليمنى وهي تكاد تكون متوقفة.

قال الدكتور عامر: أنا مستعد للتبرع بكليتي يا دكتور.

قال الدكتور عادل: ونعم الابن.. نحتاج إلى فحـص فـي انسجام الأنسجة.

وأجرى الفحص فتوافقت الأنسجة. وقـال عـادل: غـداً نجري زرع الكلية.

طلب الدكتور عادل من الممرضة أماني أن تغسل كليـة المريض استعداداً للعملية القادمة.

دخل الدكتور عادل حجرة العمليـات لاستئصـال كليـة الدكتور عامر، لزرعها في كلية أبيه.

استغرقت العمليتان طويلاً، وخرج الدكتور عـادل مـن غرفة العمليات مجهداً ليجد جمعاً غفيراً من أقارب أبي عامر جاءوا ليشاهدوا عملية زرع الكلية في رجل عجوز لم يتعـد الخامسة والستين. يتبرع بها ابنه الطبيب الذي لم يتعد بعد السابعة والعشرين.

مسحت أماني العرق من على جبين الطبيب، وهو يغسـل يديه الملوثتين بالدماء. وخلع القفاز الجلدي الأصفر وألقى به في سلة المهملات. ومشى إلى حجرته وأماني تتبعه. ولمـا وصل إلى باب الحجرة سألت أماني: أتريد شيئاً يا دكتور؟.. قال: أريد كوباً من القهوة لو سمحت. قالت بصوت رخـيم: عيني يا دكتور.

ما كاد يدخل ويستريح حتى رن جرس الهـاتف. وسـمع صوت أخيه أحمد الكموني يقول: ذهبت إلى أسوان وقلت لنا عدوا لي. قال: أبداً يا أحمد. مشاغل فقط. كيف حال سـعاد وأولادها الثلاثة. وكيف حال ست الحبايب؟..

قال: كلهم بخير.

قال: أنا مرهق يا أحمد الآن. اطلبني في سـكن الأطبـاء مساء. لديك رقم الهاتف.

قال متسائلاً: ولم أنت مرهق؟..

قال: أكثر من أربع ساعات واقفاً على قدمي أنقـل كليـة طبيب لدينا في المستشفى إلى أبيه المصاب بفشل كلوي.

قال أحمد مستنكراً: عملية زرع كلى تقصد. وتحـاول أن تعتم عليها يا عادل. سوف آتي لأنشر خبراً عنهـا وأجـري تحقيقاً بشأنها.

قال عادل: يا أحمد أنا لا أحب الشهرة.

قال أحمد: ألا تستأهل عملية زرع كلي وفـي مستشـفى حكومي بأسوان. وقام بها طبيب نابه حاصل على الـدكتوراه ومنفي.. ألا تستأهل تحقيقاً مستفيضاً عنها؟..

في اليوم التالي. قرأ عادل الخبر في الصحيفة التي يعمل بها أحمد. انبسط من الخبر. وألقى الصحيفة وارتدى ثيابه ليذهب إلى المستشفى.

ما كاد عادل يدخل من باب المستشفى حتى رأى جمعاً من الصحفيين. وأماني تستقبله عند باب المستشفى. وتقدم أحمد الكموني منه وقال: هؤلاء الصحفيون من جرائد مختلفة حكومية ومعارضة.. جاءوا لتحكي لهم قصة زرع الكلى في مستشفى أسوان الحكومي بيد طبيب نابه حاصل على الدكتوراه مثلك.

قال عادل: أنت تثير ضجة يا أحمد دون داع. ألا تتركني أعمل في صمت.

نظر عادل إلى الصحافيين وقال: يا جماعة أرجو انتظاري في قاعة المحاضرات.

تقدمت إحدى الصحافيات من الدكتور عادل وقالت: أرجو أن تراعيني يا دكتور. فأنا أعد أختك على ما أظن. أنا علا نصرت الكموني.

نظر عادل إلى أحمد: يبدو أن أباك لم يترك امـرأة فـي مصر إلا وأنجب منها. منذ أيام ظهر لـي أخ وأخـت فـي أسوان من امرأة غير أمنا.

الفصل الرابع

رقد الدكتور عامر في فراش المستشفى، والممرضة أماني تطمئنه على صحة والده، الذي لا يزال غائباً عن الوعي من أثر البنج. وسألته: يبدو أن والدك عزيز عليك. قال: ومن لا يعز أباه. قالت: هناك أناس قليل أو كثير لا يعزون آبـاءهم. أما أنت فمثال فريد.

قال الدكتور عامر: ما دام الإنسان سوف ينقذ عزيزاً عليه من الموت، فلا بأس أن يقدم التضحية مادامت لن تضره. إن الإنسان يمكنه أن يعيش بكلية واحدة طوال العمر. واستئصال كلية لا يضر بالشخص.

قالت أماني: على العموم استعد عافيتك مبكراً فالأطفـال وأمهاتهم يسألون عنك.

رن جرس الهاتف، واستغرب أن يطلبه أحد على هـاتف الحجرة التي يرقد فيها، ولما سأل: من؟.. جـاءه الصـوت قائلاً: أنا عبد الحميد يا عامر..

قال: أهلا.. كيف عرفت أنني هنا في هذه الحجرة؟..

قال عبد الحميد: من عامل الهاتف هو الذي حولني إليك.. ماذا حدث؟

قال: لقد تعرض والدي لفشل كلوي. واضطررت أن أهبه كلية.

قال عبد الحميد: يا لك من رجل بار بأبيك. لو كنت أصلح لذلك لتبرعت له بكليتي.

قال عامر: شكراً يا عبد الحميد. أنا أعرف لطفك وحبك لأبي.

عبد الحميد هذا هو زميل الصبا، حينما كان أبوه يعمل في جامعة أسيوط في شئون العاملين، قام برعايته هو وأختيه، بعد أن ماتت أمهم، وهجرهم أبوهم.. تكفل بهم يتامى ضائعين. ودخل عبد الحميد المعهد الديني في أسيوط، ليتزود من علوم القرآن، وامتهن مهنة قراءة القرآن، بعد أن أبلى بلاء حسناً في قراءته. غير أن عامر اتجه إلى الطب، ولولا ما يملكه أبوه من أرض زراعية في أسوان، آلت إليه بعد أن قررت الحكومة تعويض أهل النوبة عما فقدوه بسبب السد العالي، لقد تقرر نقلهم من ديارهم في أبي سنبل إلى قرية جديدة في أسوان أعدتها لهم الحكومة، وأعطتهم أرضاً زراعية لزراعتها، وأعطى أبو عامر الأرض الزراعية لابن عمه لزراعتها، ولما أحيل إلى المعاش أبو عامر، ترك

أسيوط ليقيم في مساكن أهل النوبة بالقرب من أسوان، وزرع بيديه الأرض الزراعية وابنه يستكمل تعليمه في كلية الطب، وترك عامر أسيوط ليعمل في المستشفى الحكومي بأسـوان، غير أن عبد الحميد لم يكف عن السؤال عن زميـل صـباه وشبابه، وذلك الرجل الذي عطف عليه هـو وأختيـه وهـم صغار.

دخل عليه الدكتور عادل وهو يتكلم، ولما انتهت المكالمة، سأله: كيف الحال؟.. قال: على خير ما يرام. لكن هل الكلية ثبتت في مكانها لدى أبي أم أن الجسم يريد لفظها؟..

قال: اعتقد أن النسيج متماثل يا دكتور عامر فـلا تقلـق. هناك جمع من الصـحفيين يريـد رؤيتـك. ويريـدون أن يستمعوا إلى ذلك الولد البار بأبيه. كما أنهم سـوف يقـابلون أباك بعد أن يستيقظ من النوم.

دخل الصحافيون يتساءلون. من بيـنهم عـلا نصـرت الكموني. وطفقوا يمطرون عامراً بالأسئلة وهو يجيـب فـي هدوء. وحاول أحد الصحافيين أن يستثير عامراً فسأله: ماذا سوف تفعل لو لفظ جسم أبيك كليتك؟.. امتعض الصـحافيون وردت عليه علا نصرت الكموني: إن العملية يا حضـرة لا

تجري إلا بعد التأكد من قبول الأنسجة بعضها لبعض. أنسجة المريض بأنسجة المتبرع. وبإذن الله منصور يـا دكتـور عامر.

نظر الدكتور عادل إلى علا، وقال لنفسـه: إن لماضـتها مثل لماضة أخيها أحمد نصرت الكموني..

أخذها الدكتور عادل بعد أن شاهد أبا عامر، وكان مترنحاً فلم ينفع الحديث معه، حاول الصحافيون أن يجـروا حـديثاً معه، لكن الدكتور عادل وجده متعباً فرفض إجراء الحديث ، ولاذ المريض بالصمت، فصرفهم الدكتور عـادل ليجـرى معهم حديثاً عن زرع الكلى، ثم قال لهم: فوتوا علينا بكره أو بعد بكرة.

لما انتهى الحديث، اجتمع الدكتور عادل وأحمد وعلا في حجرة مدير المستشفى. وقال الدكتور عادل: هات ما عنـدك يا آنسة علا.

قالت: لا.. أنا لست آنسة.. إنمـا أنـا سـيدة ودرسـت الصحافة وأنا متزوجة. وأنجبت ولداً وبنتاً وأنا أعمـل فـي الصحافة.

قال عادل: هات ما عندك يا سيدة علا..

ارتبكت قليلاً ثم قالت: لاحظت أن اسمك الثلاثي عـادل نصرت الكموني مثل اسمي الثلاثي. علا نصرت الكمـوني. فهل نحن أخوان؟..

أشار إلي أحمد وقال: هذا أحمد أيضاً أخي. أحمد نصرت الكموني. فما اللقب الرابع في شهادة ميلادك؟..

قالت: أمين.

قال عادل: يبدو أن العام الجديد أتى إلينا بمفاجآت لم تكن على البال. أن يكون لأبينا أولاد كثر. ولا يعرف إلا القليـل منهم القليل.

سأل أحمد: هل هجر أبوكم العائلة؟..

قالت: نعم.. بعد أن أنجبت أمي ثلاث بنات.

قال عادل مقاطعاً: كنت أظن أنه يفارق العائلـة بعـد أن ينجب بنتاً لكن هاهي نظريتي تتحطم فلا بد أن هناك سـبباً آخر لهذا الهجر. فقد حدث أن التقيت هنا في هذا المستشـفى بأخ لي اسمه الدكتور نصير نصرت الكمـوني ولـه أخـت اسمها زينب نصرت الكموني. وأنا لدي أخت اسمها سـعاد نصرت الكموني. فقلت إن خلف البنات يجعله يهجر العائلـة لكن هاهو يهجرها بعد البنت الثالثة.

سأل أحمد بفضول: متى ولدت؟..

قالت: أنا ولدت في العام ١٩٧٤ وأختي في العام ١٩٧٦ وأختي الثالثة في العام ١٩٧٧. وقد تخرجنـا جميعـاً مـن الجامعة بفضل ما لدى أمي من مال ورثته عن أبيها.

سأل عادل: هل تذكرين أباك يا علا؟.. ملامحه صفاته.

تقول علا: لا أذكر طبعاً لأن في العام ١٩٧٧ لـم نعـد نراه. كنت في سن الثالثة من العمر أو أقـل بكثيـر. لكـن سمعت أمي تروي عن أوصافه وحكايات عنه.

سأل: له أوصاف وحكايات؟..

قالت: ربما يكون هو أبوكما مثلما هو أبونا.

سأل أحمد: أين تسكنين؟..

قالت: نحن نسكن في مصر الجديدة.

قال أحمد: نحن نسكن في حي الحلمية.

قال عادل: لو جلسنا حتى الصباح نتحدث لمـا انتهينـا. علينا أن نأكل أولاً..

الفصل الخامس

في يوم الخميس عند الغروب، والشمس يكاد يبلعها الأفق، وصل الشيخ عبد الحميد إلى أسوان قادماً من أسيوط. جـاء ليبارك بسلامة العملية لمربيه الفاضل أبي عـامر. ويهنـئ الدكتور عامر على سلامة استئصال الكلية منه ومنحها لأبيه بحب وعطف. في تلك اللحظة، أبلغ الدكتور عامر الـدكتور عادل أن والدته توفيت أثر نوبة قلبية مفاجئة، وأنه لن يتمكن من الحضور إلى المستشفى في اليوم التالي. وضرب الدكتور عادل كفيه أحدهما بالآخر.. وقال الرجل العليل تماثل للشفاء والمرأة الصحيحة ودعت الحياة. وذكر المثل القائل: علـيلكم ما حاله فأجيب السائل صحيحنا مات. وقال الدكتور نصـير: هل ستذهب إلى العزاء.؟.. قال الدكتور عادل: هذا أمـر لا شك فيه.

في بداية حياته لم يكن يجامل، لذلك فتح ثغرة فـي الـود بينه وبين الناس. وكان يعتمد على أن الحياة فـي القـاهرة مفتوحة تتوه فيها المجاملات ولا تُذكر. أما هنـا فـي هـذه المدينة الصغيرة والقرى القليلة المتناثرة فـإن المجـاملات

أساسية لا يفلت منها كبير ولا صغير. خاصة إذا كان مديراً لمستشفي به جمع كبير من الموظفين.

سأل الشيخ عبد الحميد عن موقع قرية الدكتور عـامر ، غير أن عامل الهاتف المركزي أبلغه أن الدكتور في إجـازة لوفاة أمه، أبلغه أنه يعرف وأن الطبيب أبلغه بالأمس حينمـا طلبه للمرة الثانية، ولكنه يسأل عن الموقع، فقال له العامل ينصحه أن يذهب مع الدكتور نصير عند المغـرب ولكنـه فضل أن يذهب منفرداً فلا ينتظر أحداً.

دخل الشيخ عبد الحميد على المعـزيين. وكـانوا كثـراً فاضطر أن يصافحهم جميعاً . واحتضن عامر بشدة، وصافح أبا عامر بامتنان. يرفض أن ينهض وهو مـريض. وكـان الرجل جالساً لا يقوى على الوقوف بعد العملية الجراحيـة. وجلس الشيخ عبد الحميد بجانب الدكتور عامر. وعندما بدأت الشمس تغيب وقفت سيارة المستشفى المخصصـة للمـدير ونزل منها بعض الأطباء على رأسـهم الـدكتوران عـادل ونصير. واحتضنا عامر نصيراً بشدة، وشد على يد الدكتور عادل، فلم تكن المدة القصيرة في التعارف تسمح بأكثر مـن ذلك. الأول زميل في الدراسة بكلية الطب، أما الثاني فمديره

وله هيبته. يمكن أن يقبل نصير القبلات بلا غضب. وإذا ما حاول تقبيل المدير فقد يأبى ويتباعد، فليس أحسن من شد اليد في هذه اللحظات الكئيبة.

جلس الدكتور عادل ونصير بجانب عامر وأبـي عـامر والشيخ عبد الحميد. وتفرق بقية الأطبـاء علـى الصـوان الصغير. ولم يكن لعامر أخوة ذكور، إذ كان ذكراً على سبع بنات. وكلهن داخل الدار. وراح عامر يعـرف الـدكتورين بالشيخ قائلا: الدكتور عادل نصرت الكموني. والدكتور عادل نصرت الكموني أخوان. ولم يعرفا أنهما أخـوان إلا عمـا قريب.

قال الشيخ عبد الحميد متهكماً: وأنا الأخ الثالـث. سـأل الدكتور عادل: كيف ذلك؟..

قال الشيخ عبد الحميد مبتسماً: أنا اسـمي عبـد الحميـد نصرت أمين الكموني ولعل لقب الكموني لم تكن تعرفه يـا دكتور عامر لأني لا استعمله. انفجر الدكتور عادل قائلاً: يا للصدفة. كيف نتجمع هكذا أحدنا لا يعـرف الآخـر ونحـن أخوة. قال نصير يسأل: ماذا كان يعمل أبوك يا شـيخ عبـد الحميد؟.. أجاب: مندوب مبيعات. قال الدكتور عادل متهكماً:

وهل هجركم - هو الآخر بعـد أن أنجبـت أمـك البنـت الأولى؟.. قال الشيخ عبد الحميد: لا.. إنما جـاءت الثانيـة فاختفى. ولا نعرف أراضيه. قال الدكتور نصير: هذا ما فعله معنا.. وفعله مع أزواجه جميعاً. لقد اكتشفنا صحافية اسـمها علا نصرت الكموني هي أختنا أيضاً. سافرت منذ أيام إلـى القاهرة بعد إجراء تحقيق مع الدكتور عادل حول عملية زرع كلية عمي أبي عامر.

قال الشيخ عبد الحميد: هذا الرجل بركة. لقد ماتت أمـي بعد اختفاء أبي حزنا على هجره. وتولانا عمي بل أبي الشيخ أبو عامر.

سأل الدكتور عامر: وأين تركت أختيك الآن؟..

قال عبد الحميد وهو يكاد يبكي: لا أعرف عنهما شـيئاً. ذهبت إلى الجامع الأزهر لأقدم على دراسـات عليـا فـي الشريعة. ولما عدت لم أجدهما في البيت. أبلغـت الشـرطة والبحث جار عنهما. لا أدري هل اختطفا أم غـادرا الـدار عمداً.

قال أبو عامر: سوف تجدهما بأذن الله.. نريد أن نسـمع صوتك يا شيخ عبد الحميد على روح الحاجة آيات طاهرات تسمعنا إياها يا شيخ عبد الحميد.

قال الشيخ: وهل أنا أجرؤ على الرفض؟..

نهض الشيخ عبد الحميد واتجه إلى كرسي عريض طويل يتوسط القاعة، كان يقرأ عليه شيخ معمم. وطفق يقـرأ مـا تيسر من آي الذكر الحكيم.

همس الدكتور عادل للدكتور نصير قبل أن يقـرأ الشـيخ عبد الحميد: أنا متأكد أن أباك - أو أبي - لم يترك محافظة إلا وكانت له فيها أولاد. هل لا يزال يتزوج حتى الآن؟!!.. أم أن السن حجمته.

قال الدكتور نصير: حتى الآن أربع زوجات أم عـلا وأم عبد الحميد وأمك وأمي.. فهل تراه تخطى الحدود وتـزوج الخامسة والسادسة أم لعله يطلقهن دون أن يعلمن.

قال الدكتور عادل: ربما يواجه المـرأة فـي اللحظـات الأخيرة ويعلنها أنه طلقها. غير أنها لا تبوح بسرها أبداً على أمل أنه سيردها حفاظاً على كيان أسرتها.

قال الدكتور نصير: لا أعتقد ذلك وإلا لكانت أمـي قـد قررت ذلك ولم ترفع دعوى. قال الدكتور عادل: ربمـا لـم يكن لديها إثبات لأنه يطلق كلمة الطلاق دون شهود.

وسكتنا عن الكلام حينما بدأ الشيخ يرتل بصوت رخيم.

جلس الدكتور عادل يكتب. وأمامه الشيخ عبـد الحميـد والدكتور عامر. كان يحاول أن يكتب تاريخ عائلة نصـرت أمين الكموني. وانضم إليهم أحمد الكموني الصحفي بالقاهرة وتابع معهم ما يكتبه أخوه.

خلال الفترة (١٩٥٠ - ١٩٥٤) كان نصرت الكموني في القاهرة متزوجاً من أم عادل وانجب منهـا عـادلاً وأحمـد وسعاد.

خلال الفترة (١٩٦٠ - ١٩٦٢) كان في أسوان وتـزوج من أم نصير وأنجب منها نصيراً وزينب.

خلال الفترة (١٩٧٥ - ١٩٧٧) عاد نصرت إلى القاهرة وتزوج أم علا وأنجب منها علا وأميرة وابتهاج..

ثم خـلال الفتـرة (١٩٧٨ - ١٩٨٠) تـزوج نصـرت الكموني في أسيوط وأنجب عبد الحميد ورقية وكاملة. فـأين كان في الفترة من (١٩٥٥ - ١٩٦٠)؟.. وأين قضى الفترة (١٩٦٣ - ١٩٧٤) وأين قضى الفترة من (١٩٨٢ - حتـى الآن) . إذن هو يتنقل من القاهرة إلى أقصى الصعيد ثم يعود إلى القاهرة ليذهب إلى وسط الصعيد. فهل هو مطارد؟.. هل

هو الآن في القاهرة أم أنه ذهب إلى أقصى الوجه البحري أم إلى أول الصعيد أم ذهب إلى أقصاه. ذلك إذا كـان يـذهب ويجئ على هذه الوتيرة.

قال الشيخ عبد الحميد: ما الفائدة في أن نعرف ما إذا كان موجوداً أم مات؟.. وما الفائدة في أن نعرف أين مكانه؟..

قال الدكتور نصير: إنه دون أدنى شك أبونا. ويجب علينا أن نبحث عنه.

قال الدكتور عادل: هذا ما قصدت أن نعرفه مـن خـلال تدوين تحركاته. وبعد ذلك نحاسبه؟..

قال الشيخ عبد الحميد: وهل نحاسبه على أنه هجرنـا أو تركنا ونحن يتـامى أو كاليتـامى؟.. وهـل نجـرؤ علـى محاسبته؟.. من في قدرته أن يحاسب أباه؟..

قال الدكتور عادل: هذه هي المعضلة؟.. من منا يمكن أن يحاسب أباه على ما فعل أو ما يفعل؟..

تساءل الشيخ عبد الحميد: هل كان يطمئن علينا من بعيد؟. أنا أكاد أجزم بذلك. لأنه لما وجدنا نتقدم لم يظهر. لعله كان يبرنا دون أن ندري. ماذا يريد الإنسان من دنياه سوى علـم نافع وعمل صالح ودعوة مستجابة. والحقيقة أننـي لا ادري

من تخاف منا في العلم والعمل والدعوة. حتى الإناث مشـين على نفس الدرب. إن سعاد كما تقـول يـا دكتـور عـادل مصرفية. وزينب معلمة. وعلا صحفية وأختيهـا لا بـأس بهما. ومن ناحيتي لم أتوقف عن ترقية مدارك رقية وكاملـة وهما الآن في السنوات النهائية من الآداب والعلوم.

قال الدكتور عادل: لا تنس أن تخطرنا إذا تم فك أسرهما. واعتقد أن الجماعات المتطرفة اختطفتهما ليجبـراك علـى الانضمام لهم. جاريهم حتى تفك أسرهما مع إعلام الشـرطة بذلك.

تأمل الشيخ عبد الحميد الكلمات وقال: ربما أفعل ذلك.

سأل أحمد: كيف تترك أختيك مخطـوفتين وتـأتي إلـى أسوان للمباركة بنجاح عملية.

قال الشيخ عبد الحميد: وهو يطأطئ الرأس: ماذا أفعل؟.. أبلغت الشرطة ثم جاءني خبر نجاح عمليـة والـد الـدكتور عامر ونبأ وفاة أمه. وأبو عامر له أفضـال كثيـرة علينـا فوجدت من واجبي أن أقدم واجب العزاء.

قال أحمد: قلبك شديد يا شيخ عبد الحميد.

قال الشيخ عبد الحميد: أبداً. إنه يتمزق. وماذا كنت سأفعل في أسيوط. هل سأدور في الشوارع أنادي عليهما أو أسـافر إلى القرى والنجوع؟...

قال أحمد: أعتقد أنه آن الأوان أن نسافر إلـى أسـيوط. سأكون معك في كل خطوة. وإلا ما كنا اخوة.

قال الدكتور عادل: حاول يا أحمد - لو كان لك معـارف هناك - أن تداهم بيوت هـؤلاء المتطـرفين لتبحـث عـن الفتاتين.

قال أحمد: هذا فعلاً ما سأفعله.

ثم أردف: أما موضوعك فسوف أرسـله بالفـاكس إلـى الجريدة. وألف مبروك على نجاح العملية وتماثل المـريض للشفاء رغم ما أصابه من أحزان.

احتضن أحمد الدكتور عادل كما احتضـنه الشـيخ عبـد الحميد وكذلك احتضنا كل منهما الدكتور نصـير. وخرجـا ليركبا قطار الليل متجهين إلى أسيوط.

كانت الدنيا ظلاماً حولهم. وأشار أحمد إلى الشـيخ عبـد الحميد إلى أن ذلك الظلام هو بداية كل شيء ثم ينقشع بعـد ذلك ليكون النور وتتضح الحقيقة.

الفصل السابع

دخلا معاً إلى الساحة الواسعة الواقعة أمام محطة القطار. الصمت يخيم على المكان كأن لا مسافرين هناك. فكر أحمد الكموني في أفكار تراوده. أليس من الواجب أن اجري تحقيقاً حول نصرت الكموني. سأجريه مع أمي.. سـأجريه مـع أم علا.. وهنا في أسوان توجد امرأة أخرى هي أم نصير. ومن التحقيقات المختلفة استخاص شكلاً ومضموناً للكموني، أما أم الشيخ عبد الحميد فقد توفيت. وعلي بعد ذلك أن أوجه نـداء إلى الكموني أن يظهر إن كان حياً . لعله كان يتـرك أولاده مع الأمهات الأخريات لأنه يرى أن الأم سوف تكون بـألف رجل. لكن حينما ماتت الأم - أم عبد الحميد - ألم يكن من الواجب أن يظهر ويرعاهم. أم أنه يهجر المكان ولا يعـود إليه ولا يسأل عمن له فيه.

والشيخ عبد الحميد غارق في أفكاره - هو الآخر - هـل تمكنت الشرطة من ضبط الجناة؟.. وهل تم خطف الفتـاتين فعلاً؟.. أم أن حياة الضنك التي نحياها جعلتهما يهربان مـن أخيهما؟.. لم أكن رجعياً لدرجة كبيرة. وهما مـن نفسـيهما

تحجبتا. ولم يظهراً إلا الوجه فقط. لم أجبرهما علـى فعـل شئ، وقد سألت عنهما في الجامعة فلم أجد أنهما تحضران.

قال الشيخ عبد الحميد: سوف نتعبك معنا.

قال أحمد: لعل الأمر يأتي بفائدة. أنا أعرف زملاء لي في الشرطة في محافظة أسيوط لعلهم يسـاعدوننا. ويخـدموننا. لكن الأمر يتوقف على استمرار الفتـاتين مخطـوفتين فـي أسيوط. ولا تكون الجماعة التي خطفتهما قد نقلتاهما خـارج أسيوط. في هذه الحالة سوف يتعسر البحث.

سكت أحمد ثم سأل: هل تعتقد أنهما خطفا أم أنهما ضاقتا بحياتهما معك فتركاك مثل هي عادة أبينا في هجر العـائلات التي يكونها.

ابتسم الشيخ عبد الحميد رغم ما يملؤه من هـم. وقـال: ربما.. بذرة الكموني فيهما. ولكن كيف لي أن أعرف؟.. لقد كنت وقتها في القاهرة للتقديم للدراسات العليا فـي جامعـة الأزهر. ولما عدت لم أجدهما. لو كانتا قـد تركتـا البيـت بإرادتهما لتركتا لي ورقة على الأقل تعلماني بي فيها أنها لن تعوداً. ولكن يبدو أن الأمر تم عنوة واقتداراً.

قال أحمد: وإذا فرضنا أن الجماعات المتطرفة هي التـي خطفتهما.. للضغط عليك حتى تنضم إليهما فماذا يمكنـك أن تفيد هذه الجماعات؟..

قال الشيخ عبد الحميد: ربما من خلال الخطب والدروس في المسجد، فأنا إمام لأحد المساجد ..

سأل أحمد: وهل تفاهموا معك من قبل علـى الانضـمام إليهم.؟

أخذ الشيخ عبد الحميد يتذكر ثم قال: يبدو أن الأمر كـان تلميحاً فقد لمح أحد أعضاء هذه الجماعات منذ فترة وصرفته بالحسنى.

قال أحمد: وهل تذكر شكله؟..

قال الشيخ: أحاول. لكن الآن لا أذكره.

لما دخل أحمد الكموني شقة الشيخ عبد الحميد رأي معالم الفقر تنتشر في كل الأرجاء. سأله: ماذا تعمل؟..

قال الشيخ: أعمل مدرساً في المعهد الديني بأسيوط.

ثم سأل الشيخ عبد الحميد: لم؟.. هل لأنك صدمت بالأثاث الأغبر والشقة المتواضعة.

قال: نعم.. ذلك حق.

قال الشيخ عبد الحميد: المرتب لا يكفي خاصة إذا عرفت أنني أعول أختي رقية وكاملة. ولا زالتا تدرسان.

تأمل أحمد الكموني ثم سأل: هل تعتقد أننا يمكن أن نصل إلى أبينا؟..

قال عبد الحميد: كل شيء ممكن إلا إذا كان قـد مـات. أخوك الكبير عمره الآن خمسون سنة. فلا أقل أن يكـون عمر والدنا سبعين أو خمسة وسبعين عاماً الآن.

سأل أحمد: هل لديك وثيقة زواج والدتك من نصرت أمين الكموني.

قال الشيخ: موجودة.

ثم استطرد: لن تجد فيها إلا عنوان هذه الشقة التي نقـيم فيها منذ أن تزوج أبي بأمي. ورقم البطاقة الشخصية التـي تزوج بها.

قال أحمد: لو أطلعت على وثيقة زواج أمـي وقارنتهـا بوثيقة زواج أبيك لربما ثبت أنهما واحد.

قال الشيخ ضاحكا: كانت الفترة من خمسين إلى خمسـة وستين سنة تخضع لنظام بطاقات معينة. والفترة بعـد ذلـك

تخضع لنظام بطاقات آخر. لن يسمح الوضـع مـن التأكـد والمقارنة.

الفصل الثامن

تأملت رقية المكان الحقير، وتطلعت إلى الحرس الواقـف أمامها. ثم سألت أحد الحراس غير هيابة: لماذا نحـن هنـا. مربوطتان كالسائمة. هل تريدوننا أن نحرك لكم ساقية؟..

ابتسم الحارس رغماً عنه لخفة دمها. وقال: حينما يـأتي الأمير سليه سوف يجيبك. سألت بفضول: ومتى يأتي؟. قال: حالاً.

جاء الأمير مرتدياً ثوباً أبيض، قصير، وقد غطى رأسـه بغترة بيضاء شفافة دون أن يضع عليها عقال، فسألته: مـاذا تريدون منا؟. أجاب: سوف نتصل بأخيك حتى يكون معنا.

قالت رقية بجرأة: إن أخي مشغول بدراساته العليـا فـي الشريعة. ولا وقت عنده ليسفك الدماء ويسرق الذهب ويعتدي على النساء.

سألها: وهل اعتدينا عليكما؟

قالت كاملة: ألا يعد توثيقنا في هذا الكرسي المخلع القديم دليل على اعتقالنا. وهل تعتقد أن الشيخ عبد الحميد سوف يرضخ حتى تفكوا أسرنا؟..

قال الرجل ساخراً: نحاول.

قالت رقية: إن الذي تفعله فينا هو الحرابة بعينها. وأنت تعرف جزاؤها. بسم الله الرحمن الرحيم: إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم.
صدق الله العظيم.

قال الأمير ساخراً : إنك تحفظين القرآن جيداً.

قالت رقية: وأعمل به. لا أعمل ضده. مالنـا وآراؤكـم نحن. إن قسر الأشخاص على الانضمام إليكم هـو الحرابـة ذاتها التي نهى عنها القرآن الكريم.

قالت كاملة: إنك يا سعادة الأمير لن تبلغ مرادك لأنك متى أبلغت الشيخ عبد الحميد بمرادك فلن يطاوعك.

قال الأمير: سوف نرى. لقد قصدنا منزلكم ولم نجد أحداً. يبدو أنه لم يعد من الخارج.

قالت رقية: لقد سافر إلى القـاهرة ليسـجل اسـمه فـي الدراسات العليا بكلية الشريعة بالأزهر الشريف. وقد يتأخر. وكلما تأخر زاد ذنبكم، ولن يغفر الله لكم.

في نفس الوقت كان أحمد الكموني وعبد الحميد الكموني يقابلان مأمور قسم الشرطة. وصافح أحمد المأمور بقوة، فقد كان زميله في الدراسة الثانوية. وقدم له الشيخ عبد الحميد على أنه أخوه ويهمه أمره، وأن عليه أن يبذل مجهوداً في سبيل الكشف عن الفتاتين. وأسر له أحمد أنه يعتقد أن الجماعات المتطرفة اختطفت الفتاتين على أمل أن تضغط على الشيخ عبد الحميد لينضم إليهم. لذلك طلب من المأمور أن يقيم حراسة مدنية غير ظاهرة على منزل الشيخ عبد الحميد، وتراقب الحراسة من يدنو من الشيخ ليساومه.

لما عاد الشيخ إلى منزله، ومعه أحمد، استأذن الأخير ليشتري علبة سجائر. ونظر إليه الشيخ ممتعضاً، وقال: ألا تعرف أن السجائر تضرك؟.. قال: سوف أبطلها من أجل خاطرك. ولكن اسمح لي في هذا الوقت العصيب أن أدخن. وأقلع عنها بعد ذلك.

ووجد الشيخ عبد الحميد شخصاً واقفاً عند الباب، يرتدي ثوباً أبيض، ويغطي رأسه بغترة. وسأله: أنت الشيخ عبد الحميد؟.. قال: نعم. قال: إن أمير جماعتنا يريدك. هل تأتي

معي؟. فهم الشيخ أن ذلك الرجل فرد من مختطفـي أختيـه، فقال على الفور: وهو كذلك.

تلكأ الشيخ عبد الحميد أمام الباب، حتى يصل أحمد فيأخذه معه. غير أن أحمد لم يكن يعرف المحلات فـي المنطقـة، فغاب طويلاً، فما كان من بد الذهاب إلى هذا الأمير.

في الطريق شاهد أحمد الشيخ عبد الحميد يسير وبجانبـه آخر. يرتدي جلباباً قصيراً وعلى رأسه غطاء أبيض، وقال: هذا شخص من الجماعة المتطرفة. لذلك مشى أحمد وراءهما دون أن يلحظاه.

عند بيت بعيد عن العمران شقا الحقول وأحمد يتخفى في المزروعات، دخل الشخص ووراءه الشيخ عبد الحميد أحـد البيوت المنخفضة. فما كان من احمد إلا أن أسـرع قاطعـاً الخلاء جرياً. وطلب من المأمور هاتفياً أن يوافيه بقوة للقبض على الجماعة المتطرفة لأنها تساوم الآن الشيخ عبدا\ الحميد. وسينتظر أحمد القوة عند أول الخلاء المتفرع من شارع سماه له وعده المأمور أن تصله قوة في الحال. ووصلت القوة بعد دقائق مسرعة حيث دلهم أحمد على البيت. وحاصرت القوة الدار المنخفضة. وطرق الضابط الباب، فلم يفتح أحد. كانت

هناك عين سحرية تدل من بالداخل عمن بالخـارج. فـأمر الضابط بكسر الباب على الفور حتى لا يضيع من الوقـت. وحاول بعض الأشـخاص الإفـلات مـن شـرفات الـدار المنخفضة، لكن تم القبض عليهم. وسرعان ما خرج الشـيخ عبد الحميد مع الضابط برتبة نقيـب. ومعـه أختـاه رقيـة وكاملة.. وقد أنساق وراء العسكر أعضاء الجماعـة الـذين فكروا أن يقاوموا بالبنادق. غير أن هجوم الشـرطة كـان أسرع منهم.

واقتيدوا جميعاً إلى قسم الشرطة.

وهناك تعرف احمد على رقية وكاملة. وقال لهم الشيخ إن الأستاذ أحمد أخوكما. مثلي تماماً ليس أخـا فـي الإنسـانية فحسب إنما أخ من العصب. واستغربا وتساءلا فـي نفـس واحد: كيف حدث ذلك؟

أجاب أحمد: هذا ما أود معرفته.

الفصل التاسع

قرر أحمد الكموني وهو في طريقه إلى القـاهرة، تاركـاً الشيخ عبد الحميد وأختيه بعد أن تم القبض علـى مختطفـي الفتاتين، وتحررتا من قبضته. أن يسـتخلص حقيقـة أبيـه نصرت الكموني من أمه، ثم بعد ذلك أن يتصل بعلا الكموني ليسمع من أمها شيئاً عنه. ثم يذهب إلى أسوان - مرة أخرى - ليستمع إلى أم الدكتور نصير، ثم بعد ذلك يستمع إلى والد الدكتور عامر فقد عاصر أم الشيخ عبد الحميد وكذلك كانـت له صلة بنصرت الكموني. لعله يسـتخلص مـنهم جميعـاً الأسباب التي أرغمت نصرت الكموني على ترك أبنائه مـن زوجاته. ولو أنه كان يشعر بالفشل مقدماً لأن هؤلاء النـاس ليسوا من الذكاء حتى يستخلصوا الحقيقة المرة.

لما التقى بأمه احتضنها على غير العـادة، وأخبرهـا أن الدكتور عادل الكموني يرسل لها تحياته، ثم طلب منهـا أن تستمع له جيداً، فقد اكتشف في زيارة أسوان، وهو يجـري تحقيقاً عن عملية زرع كلية لمريض أجراها الدكتور عادل، أن له أخوة من أبيه في أسوان وفي أسيوط وفـي القـاهرة أيضاً.

استغربت المرأة ما قاله ابنها أحمد عن أبيه. وقال أحمد: حتى أتأكد من أن الأب واحد لهذه العائلات الأخرى بالإضافة إلى عائلتنا. أرجو أن تحكي لي حكايتك مع أبينـا نصـرت أمين الكموني من البداية إلى النهاية، وأن تـذكري تفاصـيل الأيام كاملة، وسوف أقوم بالاستماع إلـى روايـات النسـوة الأخريات عن ذلك المدعو نصرت أمين الكموني، وأقـارن بين الروايات المختلفة لاستخلاص منها سـبب هجـره لهـذه العائلات.

رفضت الأم أن تروى شيئاً إلا بعد أن صححت أن أبـاه ليس مدعواً فأعتذر. ثم قالت الأم: وفيم ستفيد القصة يا بنـي وقد حدث ما حدث. ومر عليها الآن أكثر من سبعة وأربعين سنة. منذ أن غادرنا أبوك.

قال أحمد متفلسفاً: أريد تأصيل الحدث ومعرفة أسبابه؟..

سألت الأم مندهشة: ما معنى تأصيل الحدث؟..

قال أحمد: أي إرجاع الأحداث إلى أسبابها.

قالت الأم: أنا لا أستطيع أن أروي. سل ما تشـاء وأنـا أجيب عليك.

سأل أحمد: كيف تعرفت على نصرت أمين الكموني؟

قالت الأم: كنا نسكن في منزل واحد. كانت له حجرة فوق السطوح. وأنا لي الحجرة المقابلة.

سأل أحمد: هل لك أن تصفيه لي؟.. وتذكري عاداته في ذلك الوقت.

قالت الأم: كان شخصاً عادياً. كان طويل القامة محني العمود الفقري. يذهب إلى عمله في الصباح ولا يعود إلا في المساء. كان يلقي السلام علي حينما يراني. ويلقي علي تحية المساء وهو يدخل حجرته وأنا جالسة أتأمل النجوم.

سأل أحمد: هل عرفت ماذا كان يعمل في تلك الأيام؟..

قالت الأم: سمعت من جارة أخرى في نفس السطح أنه يعمل مندوب مبيعات لشركة من شركات السجائر. وكان لديه عجلة يضعها عند باب المنزل الذي نسكنه. ويوثقها بإحكام حتى لا تُسرق. فلم يكن ممكناً أن ينزل بها كل يوم من السطح إلى باب المنزل ويعود بها من جديد إلى السطح.

سأل أحمد: وماذا كنت تعملين أنت؟..

استحت المرأة أن تتكلم، وسألت: هل ذلك لازم؟..

قال أحمد: لازم يا أمي. لا تستحي.. العمل حق والعمل شرف..

قالت الأم: خادم في أحد البيوت. أذهب صـباحاً وأعـود عند العصر.

برقت عينا الابن، وشعر بأنه يكشف سراً لم يكن يعرفـه. ثم تغاضى عن ذلك وسأل: هل لـك أقـارب أو كـان لـه أقارب؟..

قالت الأم: كنا نحن الاثنين لا شجرة لنا. لا أحد يزورنا. ولا نزور أحداً.

سأل الابن: وكيف تعارفتما؟..

قالت: مرض يوماً بنزلة معوية نتيجة وجبة ملوثة اشتراها من السوق. وقمت برعايته في ذلك الوقت رعاية كاملة. ولما برأ من مرضه، سألني أن نتزوج، ووافقت. اشترط علي ألا أعمل وأن أبقى في البيت. شعرت وقتها بغبطة لما اشـترط ذلك الشرط. تزوجنا. واستأجر شقة لي في الجيزة في أحـد أحيائها الشعبية عند مستشفى أم المصريين. تلك الشقة التـي تركناها لما تخرج أخوك من كلية الطب وتخرجت أنت مـن كلية الآداب وأختك من كلية التجارة. وارتفع دخلنا. اسـتأجر أخوك الشقة الجديدة بالقرب من مستشفى عابدين حينما عمل في تلك المستشفى.

قال أحمد: لا تسبقي الحوادث يا أمي.. إننا نسـير علـى مهل. صفي لي عاداته بعد الزواج بالتفصيل لو سمحت.

قالت الأم: لم يكن يتكلم كثيراً. كان يخلد للصمت. واستمر على عادته.. يخرج في الصباح ولا يعود إلا ليلاً في المساء لأنه - كما كان يقول - يوزع السـجائر علـى الحوانيـت والمحلات وأكشاك السجائر ويحاسب كل مؤسسة أولاً بأول. كان يعمل في شركة كبيرة هي شركة ماتوسيان فـي ذلـك الوقت.

قال أحمد: لما رزقت بالدكتور عادل. ماذا كان تصرفه؟..

قالت الأم: لا أعرف. هل هو أب حنون أم أب لا أهميـة للأطفال عنده. لأني لم أكن أراه إلا في المساء والطفل نائم. ثم يأكل وينام. لا يهدهد عادلاً أو يتأمله من بعيد. كنت أشعر أن عواطفه جامدة. ولم يبد عليه فرح لأنه رزق بطفل، لكـن في نفس الوقت لم اشعر أنه حزين.

سأل أحمد: هل كان ينفق بسخاء على بيته؟..

قالت الأم: نعم. كان كريماً للغاية. يشتري الخضـراوات والفاكهة. يشتري كل لوازم البيت. لم يكن يبخل علينا بشيء بطبيعة الحال في حدود إمكانياته. كنت أطير فرحاً لمـا أراه

داخلاً علي يحمل متطلبات البيت. وكان من عادته أن يـدخر معي مدخراته. وكنت أضع القرش بجانب القرش ولا أطالب بشيء جديد. كان يعرف ما عليه ولا يرفض أن يشتري شيئاً أطلبه. بل كان يشتري كسوتي وكسوتكم دون تذمر.

سأل أحمد: وهل كان يكسب كثيراً من وظيفته؟..

قالت الأم: لا أعرف شيئاً عن دخله إنما كل ما أعرفه ما يتركه من مدخرات. تلك المدخرات التي أعـانتني علـى أن أربيكم فيما بعد وافتتح محل البقالة الذي توسعت فيه.

انتظر أحمد طويلاً، وهو يفكر، والأم تترقـب وتنتظـر سؤاله التالي، وفوجئت به يسـأل: ومـا نـوع المنازعـات والمشاجرات بينك وبينه؟..

قالت الأم: لم تحدث منازعات أو مشاجرات بيني وبينـه. ذلك لأن الوقت لم يكن واسـعاً حتـى تحـدث مثـل هـذه المشاجرات، وقد تحملت أعباء البيت وتحمـل هـو أعبـاء السوق، فكان يأتي يجد لقمته جاهزة. وكنـت اسـتلم منـه متطلبات البيت.

دخلت سعاد الكموني في ذلك الوقت عائدة من المصـرف ووجهها متهلل. وتدخلت في الحديث قائلة: لدي خبر اليـوم. سوف يسعدكم جميعاً.

سألت الأم: وما هو؟..

تدخل أحمد قائلاً: حينما انتهي من تحقيقي تسردين علينـا الخبر الذي سوف يسعدنا جميعاً.

سألت سعاد منزعجة: أي تحقيق؟..

قال أحمد: انتظري. كدنا ننتهي.

عاد يسأل أمه: ألم يحدث اعتراض على مولدي أو مولـد سعاد من ناحيته؟..

استرقت سعاد السمع مستغربة التحقيق. ومع من؟.. مـع أمها. وسمعت الأم تقـول: لا.. بعـد ولادة سـعاد، خـرج بالدراجة ولم يعد. لا أدري أين ذهب؟.. أبلغت الشرطة فلـم يعثروا عليه. ذهبت إلى ماتوسيان أسأل عنه قالوا لـي إنـه انقطع عن العمل دون عذر أو سبب واضح وطلبوا منـي إذا رأيته أن أطلب منه أن يسلم الدراجة للشركة لأنها عهدة.

سأل أحمد: تذكري يوم مغادرته بالتفصيل يا أمـي فهـذا هام.

قالت الأم: كما قلت لك.

سأل أحمد: هل تبين لك أنه يكره البنات؟..

تدخلت سعاد وقد اكتشفت أن يسأل عن أبيها: ومـا لهـن البنات يا أستاذ أحمد؟..

قالت الأم متجاهلة اعتراض ابنتها: لا.. لم أتبـين ذلـك. فمثلما عامل عادلاً عاملك وكذلك سعاد..

سأل أحمد: هل سألت عنه في المستشفيات عند مغادرتـه أو لدي معارفه؟..

قالت الأم: لم يكن له أصدقاء. وسألت عنه في مستشفى أم المصريين فلم أعثر علـى مـريض باسـمه. سـألت فـي مستشفيات الدقي، ربما دخلها صدفة وهي غالية لكن لم أعثر عليه.

سأل أحمد: ماذا تعتقدين سبب مغادرته البيت؟..

قالت الأم: ربما.. ربما أقول. قد فقد ذاكرته أو مات فـي حادث ولم يستدلوا علي اسمه وعنوانه. لكنك تقول إنه تزوج وانجب.. ولا يزال يدعى باسم نصرت أمين الكموني.. ربما يا بني. حدث له هوس فصار يتزوج من حين لآخر.

قال أحمد: مشكلة.

التفت إلى سعاد وقال: ما الخبر يا سيدة سعاد الذي سوف يسعدنا جميعاً.

قالت سعاد: تقدم لي عريس.

كيف يتقدم لها عريس ولها ثلاث أولاد؟..

الفصل العاشر

يقول المثل: تصوم.. تصوم.. وتفطر على بصلة. هكـذا كان واقع سعاد نصرت الكموني. بنت نصرت الكموني التي اقتفت أثر أخيها الكبير وأعرضت عن الزواج، بعـد وفـاة زوجها الأول والذي رزقت منه بثلاثـة أولاد. وكـان الأخ الأكبر يعدها من المتزوجات رغم أنها تعد أرملة لأن وضع الأرملة والمطلقة يختلف اجتماعياً عن المتزوجة. ولعل الأخ الكبير الدكتور عادل الكموني كان يتملكه شعور بـالانعزال، ومن مظاهر هذا الانعزال هي ألا يتـزوج، فتملكهـا ذلـك الشعور بعد وفاة زوجها. فتلقائياً أشع ذلك الشعور على أخيه أحمد الكموني الصحفي المشهور. وسعاد المصرفية المرموقة مديرة إدارة القروض. تزوجت ومات زوجها فامتنعت عـن الزواج خوفاً من إعادة التجربة لأنها انتهت بالمرارة. غيـر أنها وجدت أن شبابها على وشك أن يدفن في جب الشيخوخة العميق. وليست هي قديسة تهب نفسها لأولادها مثلما فعلـت أمها بعد غياب الكموني الكبير عنها، فامتعضت مـن ذلـك المصير. وقبلت الرجل الذي تقدم إليها أحد طالبي القـروض من المصرف، ومقاول من الأغنياء، ومتـزوج ولـه أولاد.

فليس لديه مرارة من كونها تزوجت من قبل ولها من زواجها الأول أولاد ثلاثة. أدركت سعاد أنها صـفقة يعقـدها معهـا المقاول حسونة المنيري، فإذا ما تمت الصفقة فسوف يطلقها، لكن سعاد تريد أن تتذوق الرجل بعد أن امتنعت عن الرجال طويلاً ولا يمكن أن تخطو على أعتاب الشيخوخة وليس لهـا ذكريات إلا مع زوجها الأول العليل ، ولكن ذكرياتها معـه باهتة مريرة لأن الرجل كان سقيماً فلم ترتو منـه ارتـواء كاملاً.

" وإذا تزوجك يا سعاد وهرب مثل أبيك. أليس في ذلـك مأساة تصنعينها لنفسك؟.. أو مات مثـل المرحـوم زوجـك الأول. الأمر وارد، لكن سوف أضع من القيود ما يحول دون أن يطلقني وإلا كانت بيننا المحاكم وأكسب القضية في النهاية بفضل ما لدي من وثائق. وتؤول إلى أموال كثيرة تجعلنـي اشتري أي رجل فيما بعد. ولو شاب في الثلاثين من العمر. ولن أصرف له القرض إلا إذا تم الزواج.. وسـوف تكبلـه القيود المصرفية حتى أضمن إتمام الصفقة وإلا تضيع نقـود المصرف هدراً وأضيع أنا معها."

فوجئ أحمد الكموني بما قالته سعاد الكموني أن الرجـل كبير في السن ومتزوج وله أولاد. ولكنها اشترطت عليه أن يكون الزواج معلناً وأن عليه لو خذلها أن يدفع مبالغ طائلـة بعد الطلاق. كذلك لن يعقد القران إلا إذا اشترى لهـا شـقة فاخرة على النيل وكان معها أولادها. سألت الأم: ومن أجـل ماذا سوف يتزوجك؟.. قالت: لا تثبطي همتي ولا تغرقينـي في الإحباط. سأتوقف عن السير في أسلوب عادل. خلاص. كفاني رهبنة. ولست مثلك أصبر حتى أكل مني الصـبر. إذا كنت تريدين أن يسير أحمد وراء أسلوب عادل فلا بأس. أما أنا فقد زهقت.

جاء المقاول حسونة المنيري يطلب يـد ربـة الصـون والعفاف السيدة سعاد الكموني، وحجبت عنه أولادها. ووجد أحمد أن المقاول لا يزال يحتفظ بشبابه. ولكنه أقل تعليماً من أخته. وكاد يحسده على الشباب والرجولة، غير أن سـعاد لا تقل عنه شباباً ولو أنها دخلت أعتاب السادسـة والأربعـين. ولكن هل يتزوج أحمد وهو في الثامنة والأربعـين.. ومـن تكون تلك التي تقبل بـه؟. ضـحك وهـو يقـول: أخـت المقاول!!..

انشغل أحمد بفرح أخته، وكان عليه أن يواصل البحث في سيرة أبيه نصرت الكموني. وانتقلت سعاد إلى الشقة الجديدة مع أولادهـا الثلاثـة، وتعمـدت أن تلتقـي بزوجهـا دون حضورهم. ووفي المقاول بكل التزاماته وملكها شـقة علـى النيل، واستمر على اتصال بها بعد الزواج. لم يطلقهـا لمـا تعثر القرض في المصرف لعدم كفاية الضمانات. وقال لها: أتفعلين بي ذلك يا بنت الكموني؟.. قالت: لست وحدي في إدارة القروض.. هناك مئات يفحصون الصفقة وأجمعوا على أن ضماناتك غير كافية. ثم سألت: أكنت تتزوجني من أجـل أن أمرر لك أوراق القرض؟

قال: مستحيل .. لا.. لا... رمقته كأنها تقول له:

- يا كاذب.

غير أنه وعدها أن يعطي المصرف الضـمانات الكافيـة حتى يحصل على القرض.

قالت سعاد: ولم تقترض من المصـرف. أقتـرض مـن الناس. بع لهم أحلامك وأنجزها فعـلاً حتـى لا تتعـرض للمسئولية وسوف يكون الناس خير معاون لك.

قال: أموال الناس لا تكفي. لابد من سيولة كبيـرة حتـى أنشئ شليهات الساحل الشمالي وأؤسس القرية المنتظرة.

قالت: خذ من الناس مقدماً. وخذ من المصـرف بمقـدار الأرض التي اشتريتها في الساحل الشمالي.. وسوف تجد أن الصفقة رابحة.

لم تصدق سعاد أنها حملت في هذه السن المتأخرة. مـن العادة ألا تحمل المرأة بعد سن الرابعة والأربعـين. ولكـن هناك حالات تحمل فيها حتى سن الخمسين. وهاهي تدخل في هذه الحالات. ولم تعلن سعاد حسونة المنيري بحملها حتى لا يهرب مثل أبيها. ولكنه ليس مثل أبيها لقد تزوج مـن قبـل والديه ثلاثة أولاد مثلها، وثروته - كما يدعي - تكفي عشرة، بيد أنها تعرف أن الثروة ليست له لأنه لم يقدم ما يثبت ذلـك للمصرف.

فتحت باب شقتها يوماً، لترى امـرأة عجـوز تجـاوزت السادسة والخمسين، ومعها امرأة قوية بدينة كأنما هي حارس خاص بها. وسألتها: هل أنت سعاد الكموني؟

قالت: نعم.

قالت المرأة بفضول: هل تزوجت حسونة المنيري؟..

قالت وهي تتماسك: تزوجنا علـى سـنة الله ورسـوله. والشرع يبيح له الزواج باثنتين أو ثلاث أو رباع.

حاولت المرأة البدينة القوية أن تنقض علـى سـعاد وأن تتقدم منها وتضربها، غير أن المرأة العجوز منعتها، وهـي تسأل: وعلى ماذا تزوجك؟.. لست صغيرة السن. ولا الشباب ينطق بآياته على وجهك. وإن كنت جميلة حقاً لكـن شـبابك سوف يزوي بعد قليل.

قالت سعاد كأنما تتحداها: تزوجني ليتمكن من الحصـول على قرض. وقبلت لأني لم أتزوج منذ مدة طويلة.

سألت المرأة: لك أولاد.. أليس كذلك؟..

ثم سألت كأنما لا يعنيها أن تجيب عن سـؤالها السـابق: وهل صرف القرض؟..

قالت سعاد كأنما تستفزها: لا يزال البحث جارياً.

سألت المرأة: وكيف تقبلين أن يكون زواجك صـفقة يـا امرأة ؟..

قالت سعاد وهي ترفع عينيها مستغربة: وما في ذلـك؟.. الحياة نفسها صفقة يا سيدتي. يمكـن أن تكـون خاسـرة..

ويمكن أن تكون رابحة.. هل ستستمرين في الكلام عند باب الشقة أم تدخلين أنت وحارسك الخاص؟..

دخلت المرأة لتشاهد أثاث البيت رائعاً. يـدل علـى ذوق رفيع. والمرأة البدينة القوية تتنمر تريـد أن تفتـك بسـعاد والمرأة العجوز تمنعها. غير أن سعاد منتبهة لهـا وتتباعـد عنهما. وجلسن في صدر الصالة في ركن الاستقبال.

قالت المرأة كأنما تظن أنها تثير غضبها: ألا تعـرفين أن له ثلاث أولاد؟..

قالت سعاد كأنما الأمر لا يعنيها: أعرف. وسيكون منـي ولد.. ولي ثلاث أولاد من زوجي الأول.

انزعجت المرأة وقالت: ألا تعرفين أن كل ثروتـه هـي ثروتي؟..

قالت سعاد: ومن لا يعرف. لذلك رفضت إدارة القروض أن تعطيه القرض لأن ما قدمه من مستندات تدل على أنه لا يملك شيئاً إلا قطعة الأرض التـي يريـد أن يبنـي عليهـا الشاليهات.

قالت المرأة: ألا يدل ذلك على أنه ينصب عليك.

كانت المرأة تتكلم. والمرأة البدينة تتلمظ بفكها، كأنها لبؤة تريد أن تفتك بفريسة. وسعاد تحاول أن تهدئ من أعصابها، لقد تهيأت ذلك الموقف في الأيام الماضية، وهاهو يتحقق.

سألت سعاد: ماذا تريدين أن تصلي إليه؟..

قالت المرأة: أريد أن تتركيه لأن لا فائدة منه.

قالت سعاد: أنا لا أسعى وراء فائدة. الفائـدة حـرام يـا مدام.. وأنا أعمل في مصرف وأعرف ذلك. ولك أن تعرفي.

قالت المرأة: أتسخرين مني؟..

قالت سعاد بتبرم: أنا لا أسخر منك. أريد فقط أن أقول أن لا فائدة من هجومك علي. واتركيني أعيش في سلام مثلمـا تعيشين أنت في سلام. ثم أنت تقولين إن الأموال كلها خاصة بك فماذا يزعجك؟.. أن أشاركك فيه؟.. وماذا تأخذين منـه الآن؟.. ربما أكون أنا أكثر فائدة منك. ألا تضحين من أجل الرجل؟..

تنطق المرأة البدينة متلمظة: اتركيني عليها.. أربيها لك.

تقول سعاد بهدوء: ومن الذي سيسمح لـك يـا امـرأة.. أتظنين أنني لا قوة لدي . حاولي هكـذا.. وسـوف تجـدين نفسك تسفين التراب.

كانت سعاد تجلس إلى مقعد واسع كبير بجانبهـا كرسـي تمسك به. أو تلمسه. حتى إذا ما بدر من المرأة البدينة غدراً هاجمتها بالكرسي وتضربها به. سوف تشل حركتها لدقائق ثم تستنجد بالجيران وبالشرطة إن أمكن.

قالت المرأة يائسة: إذن لا فائدة.

قالت سعاد بتحد: إذا كان باستطاعتك أن تجعليه يطلقنـي فلا بأس.

" لا أهمية للرجل في حياتي. أبي تخلى عنا في السـنين الأولى من حياتنا. وقادت أمي المركب المتهالك فـي بحـار الحياة الصاخبة. ووصلت بنا إلى الطب والآداب والتجـارة. فهل أنا لن أستطيع أن أحمل ابني فوق كتفي واجعله أعظـم رجل في الدنيا. كذلك أولادي من زوجي الأول؟.. "

الفصل الحادي عشر

لم تتدخل أم عادل في زواج ابنتها سعاد الكموني كثيـراً، فقد كانت الفتاة حريصة على اتخاذ قراراتها دون الرجـوع إلى أحد، وإثبات حقوقها بمفردها، غير أن أم عادل عافـت التدخل بسبب أنها رفضت مـن البدايـة أن يكـون الـزوج متزوجاً ولديه أولاد، وتجاهلت أن ابنتهـا لهـا أولاد هـي الأخرى. بيد أن هذا المبدأ قبلته ابنتها لأنها لم تكن تحلـم أن يتزوجها رجل غير متزوج. أو مطلق أو أرمـل لـيس لـه أولاد. وكذلك كان رأي أخيها عادل الـذي تعلـل بمشـاكل المستشفى في أسوان، وكثرة العمليات والمرضـى بعـد أن اشتهر عقب زرع كلية والد الـدكتور عـامر زميلـه فـي المستشفى، ونجحت العملية وأصبح المريض صحيحاً. ولـم يختلف رأي الصحفي أحمد الكموني في ذلك الصدد، لـذلك وجدت سعاد نفسها كأنها تعيش في جزيرة نائية لا يزورهـا فيها غير زوجها الذي أخذ يتململ منها بسبب أنها لا تزحزح أوراق القرض الذي طلبه من المصرف قبل الزواج. وكانت حجتها أن الضمانات كلها باسم زوجه الأولى، وأن عليـه أن يقدم ضمانات شخصية باسمه. واستغربت أن يكون زوجهـا

بهذه الأمانة فلم يبتلع ما يصل إلى يده من أرباح باسم زوجته ويحركها من حسابها إلى حسـابه، فتصـبح ذمتـه الماليـة متضخمة من شركة المقاولات الخاصة بزوجه، حينئذ يتمكن أن يحصل على القرض.

التفت أحمد إلى البحث الذي بدأه، وهو سيرة أبيه الغائب. فسافر إلى الأقصر، في مهمة صحفية متخفية ليرى استتباب الأمن في الأقصر، بعد مرور سنوات، حيث تمكن الإرهاب يوماً من قتل نفر من السياح الأبرياء. ثم سافر إلى أسـوان للنظر فيما تم في قضية أحداث الكشح. وكان يقصد من وراء ذلك أن يقابل أم الدكتور نصير بعد أن يفـرغ مـن تغطيـة أحداث الكشح. وقابل الزوجة الثانية الظاهرة بعد أمه، فأمـه دخل بها أبوه في الخمسينات، وهذه المرأة دخل بها في بداية الستينات.

قابل هناك عزيزة بنت زوجة أبيه، واستمعت إليـه فـي حضور أخته زينب وأخيه الدكتور نصير. سأل أحمد قائلاً:

- الحقيقة أجري بحثاً عن أبي. أجريت الجزء الأول منه مع أمي. وذلك منذ زواجها منه إلى أن غادرها. سـألتها في آخر اللقاء عن سبب مغادرته منزل الزوجية. قالـت

أمي: إنه ربما فقد ذاكرتـه. أو مـات. أو يغيـر فـي الزوجات . أو أصيب بهوس أفقده العـودة إلـى بيتـه. بطبيعة الحال فقد الذاكرة وارد وكذلك الهوس. أما الموت فواضح أنه لم يمت بدليل أنه تزوج منك وكـان يعـرف اسمه تماماً. وتزوج بك. فهل شعرت وأنت فـي بدايـة حياتك معه أنه مهووس أو فاقد الذاكرة أو ذكر لك شـيئاً عن الماضي.

قالت الأم: لقد عرفته معاوناً لأبي . تاجر الجملة. وكـان يأخذ بضاعته على دراجة ويقوم بتوزيعهـا علـى القـرى والنجوع في داخل محافظة أسوان. خاصـة تلـك البقـالات العشوائية التي كانت تبيع المواد الغذائية لعمال السد العـالي. وطلبني للزواج واستمر يعمل مع أبي. كانت أمي قد ماتـت، وتكفل بي أبي، فلما تقدم الكموني له طالباً أن يتزوجني، لـم يرفض، وتفرغ أبي لمهمة جديدة أختلقها فجأة، وهي الزواج من الأرامل والمطلقات. واكتشفتُ بعد وفاته أن النساء أخذن قسطاً وافراً من ثروته. حتى أصبحت على الحديدة. غير أن زوجي تمكن من أن يقترض قرضاً حسناً من جار لنا.. مما جعل التجارة تستمر. وكنت قد أنجبت منه نصـيراً وكـذلك

زينب. ولم أكن اعرف شيئاً عن الخسارة والثروة الضـائعة. ولما فر الكموني إلى غير رجعة. أوصاني عبد البديع التاجر المقرض أن اطلب الطلاق أمام المحكمة، حتى يتمكن من أن يتزوجني ويرعى طفلي فقد كان أبي عزيزاً عليه، ولا يريـد لابنته أن تتدهور أحوالها من بعده. وفعلاً طلبـت الطـلاق، وبعد شهور العدة تزوجني عبد البديع، وأنجبت منه عزيزة.

سأل أحمد دون أن يلتفت إلى عزيزة: كنت أسـأل عـن مظاهر دلت على أن نصرت الكموني فقد الـذاكرة أو كـان مهووساً.

قالت أم نصير: الحقيقة كان يعرف جيداً اسمه، ولعله كان يعرف ماضيه، ولكنه لم يكن يذكر منه شيئاً، لم يكن يـتكلم عنه. حتى بعد أن تزوجته كان صامتاً لا يتكلم. ولم يكن من عاداته مثلاً أن يداعبني أو يداعب طفليه. بل لم يكن يخلـق حديثاً بيني وبينه. إذا أعددت المائدة قام ليأكل. وإذا أكل نام. وإذا استوفى راحته نهض ليذهب إلى المحل. دكان أبي. ولم يكن يأتي بتصرفات تدل على الهوس إنما كان يبدو كأنه عقل متحرك.

سأل أحمد: ألم يحك لك عنه عبد البديع زوجك الثاني بعد الزواج عن تصرفاته؟.. ألم يكن يعرفه؟..

قالت أم نصير: نعم.. كان يعرفه. لكنه لم يذمه يومـاً أو يمدحه.. كان يذكره بالخير خاصة حينما طالبه بالقرض لينقذ تجارة أبي ويتمكن من تصريف أحوال المتجر المالية.

سأل أحمد: وما كان في ظنك سبب اختفائه؟..

قالت أم نصير: ربما يكون السبب في ذلك الضائقة المالية التي كنا نعاني منها. لم يستطع أن يسوي ديون أبـي التـي تراكمت بسبب تعدد زوجاته. وشعر أن المسئولية ثقيلة عليه فتركها على كاهلي وغادر أسوان. ومات بعد مغادرته أبـي ليتركني في جحيم من الديون والمطالبات. هناك من الرجال من يبدو متماسكاً، فإذا واجهته مشاكل هـرب منهـا. لعـل الكموني كان واحداً من هؤلاء الرجال.

سأل أحمد: هل حكى لك جزءاً من ماضيه أو آماله فـي المستقبل؟..

قالت أم نصير: أبداً. لم يكن يقص على شيئاً ولا حتى ما يحدث له وهو معي.. ولم اكن أعرف بديون أبي إلا بعد أن مات. وحتى حينما اقترض من عبد البديع لتصريف أمـور

المتجر المالية لم يذكر شيئاً. إلا أن عبد البديع نفسه هو الذي حكى لي . وقد تزوجني الرجل رأفة بي وبولدي.

سأل أحمد: هل كان عبد البديع متزوجاً؟

قالت أن نصير: أبداً إذ كان من المعرضين عن الـزواج. وأقاربه كثيرون. شاركوني في متجره بعد وفاته كأنهم نمل. لكن كان لي الثمن وكان لابنتـي النصـف طبقـاً للشـريعة الإسلامية. ولم يهتموا بيتمها وتدخلوا في التجارة. ونصـير كان قد تخرج من كلية الطب. أنفق عليه عبد البديع من حـر ماله كما لو كان ابنه. وكذلك انفق على زينب وابنته عزيزة.

فشل أحمد في استنباط شئ عن أبيه الغائب. وماذا سيفيدك يا سيد أحمد لو عرفت شيئاً عنه. ربمـا عرفـت مكانـه أو الأماكن التي كان يتردد عليها فأذهب إليها وأجده هناك. ربما يكون في ضائقة مالية فأنقذه. وربما اعرف مكانـه فـأوده. وأعرف ظروف إعراضه عن عائلاته. جميل!!.. ولكنك لم تصل إلى شئ التفت أحمد ليجد عزيزة تستمع إلـى أمهـا، ونصير وزينب ينصتان بتمعن.

سأل أحمد عزيزة: هل تعملين يا آنسة عزيزة؟..

قال الدكتور نصير: عزيزة تخرجت من كليـة الحقـوق جامعة أسيوط. وتنتظر أن تجد لها وظيفة في الحكومة. غير أنه قيل لي إن الحكومة أصبحت لا تعين أحداً الآن إلا القليل.

قال أحمد: ولم لا تعملين في الصحافة؟.. ألا تستطيعين أن تكتبي خبراً مثلاً؟..

قالت عزيزة مرتبكة: أستطيع.

قال أحمد: يمكن أن أعينك تحت التمرين في الجريدة.

سألت عزيزة: أين؟..

قال أحمد: في مصر.

قالت عزيزة: وكيف أعيش في مصر؟..

أسهم أحمد ثم قال: مشكلة. ما رأيك لو اشتغلت بمكتـب الجريدة في أسوان.

قالت عزيزة: هذا مقبول فعلاً.

الفصل الثاني عشر

قد يكون السبب في أن أخاه الدكتور لم يتزوج حتـى الآن هو انشغاله بالعلم والعمل المرهق. فما هي حجته هـو وقـد انتهى من دراساته منذ سنوات بعيدة. وشارف على الخمسين إلا قليلاً وما هي عقدته التي منعته من الزواج، هل هي عقدة الكموني؟.. وما هي عقدة الكموني يا صحفي؟.. العقدة هي الخوف من إنجاب الأطفال وعدم المسئولية عن الأسـرة؟.. وهل كنت تعرف أن الكموني قد ترك عائلة بعد عائلة حتـى تتكون لديك تلك العقدة؟.. لا.. إنما هو الإحساس فقـط أنـه ترك العائلة دون عائل وأخشى أن افعـل مثلـه. وإذا كنـت تخاف أن تفعل ذلك فهل ستفعله؟.. ربما الأمر عملية تأجيـل مستمر حتى فات الزمن. والآن أنت مشغول بالبحـث عـن الكموني. وسوف يضيع الزمن في هذا البحث مثلمـا ضـاع منك من قبل!!..

دخل إلى قاعة الصحفيين في الجريدة الصباحية، يتجـول بعينيه باحثاً عن أخته علا الكموني. لم يرها منذ مـدة ولـم توده ولم تتصل به كأنها لم تصدق مسـألة الأخـوة. كـأن الكموني والدها ليس الكموني والده. وشغله عن الاتصال بها

زيجة أخته سعاد. ووجدها جالسة بين عدد من الصـحفيات تثرثر. وقد بدا أنها حملت من جديد.فاستغرب درجة ركـض الزمن السريع.

سألها وهو يصافحها: هل تذكريني؟

قالت: ومن ينسى أخاه؟..

صافحته بحرارة وهي تنهض بتثاقل. وهـو يحـاول أن يثنيها عن ذلك. وتتفرق الصحفيات حتى تتمكن من الثرثـرة مع القادم الجديد إليها إلا واحدة. بقيت في مكانها تتأمل القادم كأنها تعرفه من صوره التي تنشرها جريدته فيمـا يخـص الحوادث.

قال: آليت على نفسي أن اعرف لغز الكمـوني؟.. وأيـن يقيم لأتصل به؟.. لذلك آليت على نفسي أن اكتب قصته أولاً من مصادرها وأناديه أن يظهر لو كان لا يزال علـى قيـد الحياة. وقد التقيت بأمي واسـتجوبتها عـن حياتـه معهـا. وأجريت تحقيقاً مع أم الدكتور نصير الكموني فـي أسـوان ولعلك التقيت به هناك. والآن أمامي أن أقابل والـدتك فهـل تسمحين لي؟..

قالت: وفيم تفيدك والدتي؟..

قال: سوف أعرفها بقصص النساء اللاتي سبقنها وأسألها عما يكون لديها من أسرار لا نعلمها. ربما يكون قد أفشـى لها سراً يقودنا إليه أو يلقي الضوء على ذلك الرجـل الـذي هجرنا ونعرف أسباب هجرته.

قالت علا: لقد تزوجت من مقدم في الشرطة. واسـتقللت بعيداً عن أمي وأختي. في شقة بعيدة عنهن. هن يعشن فـي مصر الجديدة وأنا أعيش في العباسية في شقة المقدم.

سألها أحمد وأشار إلى الحمل: حدث ذلك بعد أن التقينا في أسوان.

ضحكت وقالت: بعد أن التقينا. وسـوف يكـون ترتيبـه الرابع.

سألها: متى تزوجت؟..

قالت: منذ زمن بعيد. كنت أتحرى خبراً عن جريمة فـي قسم قصر النيل. والتقيت بالمقدم كان وقتها برتبـة نقيـب. ويبدو أنه لم يتردد في الزواج مني فـي الحـال. إذ عـرف عنواني وقابل أمي وتزوجنا. زواجنا يعد أسرع زواج فـي العالم.. لو شئت أن تسميه. وأنجبت منه ثلاثة وهاهو الرابع في الطريق.

سأل أحمد: هل رويت لأمك عن لقائك مع أخوين لك في أسوان.. وأخ ثالث.. كلهم من نصرت أمين الكموني.

قالت: وهل ذلك الأمر يبقى سراً؟.. وهل تظن أن امـرأة يمكنها أن تكتم سراً في صدرها؟..

قال أحمد: متى أقابل والدتك؟..

قالت علا: الآن.. لو أحببت.. مضى يومان لم أر فيهمـا أمي.. فلا بأس أن أراها اليوم.

التقى أحمد بأم علا. لم يكن يظن أنها بهـذه الأبهـة وأن شقتها بهذه الفخامة. فلم هرب منهـا نصـرت الكمـوني؟.. وكيف سقط نصرت الكموني على ذلك العز. وكيـف تـرك ذلك كله وما أسباب تركه؟.. لم يصدق المرأة وهي تقـول: أنت تشبه أباك كثيراً.

قال: هل هذا معقول؟..

قالت: أليس لديكم صورة له؟..

قال: لم نكن - كما يبدو - نعرف ذلك الترف.

قالت المرأة: أنا عندي الكثير لكن بحثت عنها ولم أجدها، ويبدو أنها اختفت بقدرة قادر، أو لعلي وضعتها فـي مكـان

ونسيته. قال: كنت أود أن أراها، فهل إذا وجدتها تسمحين لي أن أراها؟..

قالت: من الآن فصاعداً سوف أبحث عنها وإذا وجـدتها سأتصل بك.

سأل أحمد: كيف التقيت به؟

قالت: التقيت به في أواخر الستينات. جاء ليعمل في ذلك الكازينو الذي أملكه وأديره.

سأل أحمد: ماذا كان يعمل؟..

قالت: أنت تعرف ذلك الكازينو هو كازينو ومطعـم فـي نفس الوقت. وهو لا يلبي طلبات زبـائن يحضـرون إلـى المطعم. ويلبي أيضاً طلبات الزبائن الذين يبقون في بيوتهم. كان نصرت الكموني أحد هؤلاء العمال الذين يحملون إلـى الزبائن طلباتهم. رجل عفي استرعى نظـري مـن النظـرة الأولى.. أنيق نظيف قليل الكلام. ولم أكن أنا بـالمرأة التـي تجري وراء رجل من النظرة الأولى. إنما استغرق ذلك وقتاً طويلاً حتى تمكن مني وتمكنت منه. كنـت أديـر المطعـم والكازينو باقتدار. ولم أكن تزوجت بعد. ولما فكـرت فـي الزواج لم أجد غير نصرت الكموني. لـم أهـتم بتعليقـات

صديقاتي ووصمهن صاحبة العمل التي تتزوج عاملاً لديها. وخضت التجربة رغم أنفي.. لأني كنت قد أحببت نصـرت الكموني.. ربما لأنه متباعد.. غير متزلف.. قليـل الكـلام. مترفع. يؤدي واجبه على خير وجه.

سأل أحمد: حينما جاء ليعمل لديك، فهل لاحظت أنه شارد الذهن. يبدو مثقلاً بأعباء من الماضي.

قالت: أنا أفهمك على اعتبار أنه ترك عائلتين كما قالـت لي علا. عائلة في الجيزة. وعائلة في أسوان. كما هو ظاهر حتى الآن. لكن أقول لك إنه لم يكن يبدو عليه شـيء. كـان متزناً. ولا يبدو مثلاً أن ضميره يقلقه لأنه تـرك العـائلتين وراءه. ولم ألحظ أنه يفكر بألم. كان يبدو صافي البال. ولكنه لم يكن أبله.. يبدو كرجل يؤدي رسالة معينة.

قاطعها أحمد: ولا يعنيه نتائج أعماله.. فمـا هـي تلـك الرسالة في نظرك؟..

قالت: أن يؤدي عمله الذي رسـمه لنفسـه. ولا أهميـة للآخرين.

سألها أحمد: وماذا كانت علاقاته ببناته؟..

قالت أم علا: الحقيقة أنه تزوجني بشرط ألا يغير وظيفته. استمر ينقل إلى الزبائن طلباتهم طول النهار وحتى منتصف الليل. وكان من النادر ما يرى بناته لأن العمل كان أهم لديه من أي شيء. لا تراه إلا وهو يعمل.

سألها أحمد: ألم تحدث حوادث معينة دلت على أنه تزوج من قبلك بأكثر من مرة؟.. أو حـوادث كشـفت لـك عـن ماضيه؟..

قالت أم علا: أبداً.

قال أحمد: أخي الدكتور عادل قال يوماً إنه كان إذا رزق بالبنت يغادر العائلة على الفور.. وقد اتضح لـي أنـه رزق بثلاث بنات منك ولم يغادر.. فما رأيك؟..

قالت أم علا: أبداً.. لم يعلق في المرة الأولى ولا الثانيـة ولا الثالثة على أني أنجبت بنتاً.

قال أحمد: إذن بما تعللين هجرتـه لعائلتـه الثالثـة فـي اعتقادك؟..

قالت أم علا: لا أجد تعليلاً. فجأة اختفى.

قال أحمد ضاحكاً: ليظهر في أسيوط. وينجب هناك الشيخ عبد الحميد وأختيه.

قالت أم علا: أنت إذن تتبع أثره؟..

قال أحمد: أبداً.. إنما يحدث اكتشاف الأثر صدفة.

الفصل الثالث عشر

لم يعد في إمكان الدكتور عادل أن يصبر أكثر من اللازم. شاغلته الممرضة أماني حتى ضعفت مقاومته. لم يصـادف من قبل أنثى مثلها . كانت هناك معجبات كثيرات بـه لكـن تباعده جعلهن يزهدن فيه. أما هذه الممرضة فقـد شـاغلته لدرجة أنه لم يعد يستطيع أن يفك من أسرها. حاول مرة أن يقبلها غير أنها صدته. وقالت: إلا هذا العمل فيجب أن يكون في الحلال. سأل كأنما لم يفهم: وما هو الحـلال؟.. قالـت: الزواج. عاد يسأل: وهل ستستمرين في العمـل؟ .. قالـت: لا.. إذا أردت. قال: سوف يكون القيل والقال حولنا إذا تزوج طبيب ممرضة. قالت: أنا أعرف. ولا مانع أن أبقـى فـي البيت.

أخذها ووالداها معها، وأخوتها إلى القاهرة، ليحتفل بعقـد القران بين أمه وأخته وأخيه. والتقى لأول مرة بزوج أختـه المقاول حسونة المنيري. لم يستنكر أنه تجاوز الخمسين، لأنه أيضا يتزوج وهو يتعدى الخمسين. ولكنه استنكر أن يكون قد سبق له الزواج من قبل. وما المانع يا دكتور مادامت أختـك تزوجت من قبل ولديها أطفال؟.. غير أنه لـم يسـتمر فـي

التساؤلات ومشاغلة نفسه. والتفت إلى مشاغل الحفلة التـي جرت مراسيمها في ناد.

لم يدقق معه والدا أماني لا في الشبكة ولا المهر بل كانـا مطيعين لأماني إذا وافقت وافقا وإذا رفضت رفضـا. ولـم ينتقدا زواجها من رجل يكبرها في العمر لأنها تقدمت - هي الأخرى في السن دون أن تتزوج. ومنعهما من الاعتـراض أن أماني تعمل تحت أوامر الدكتور عادل. ولـو أن العائلـة جميعها لم تصرح بذلك إنما ادعت أنه التقى بها في أسـوان وأعجب بها وطلبها للزواج ولم يكن احمد أخوه التقـى بهـا وهو يجري تحقيقاته في أسوان مع أخيه.

عاد أهل أماني إلى أسوان بعد انتهاء الزفـاف. وذهـب عادل وأماني إلى الإسكندرية ليقضيا شهر عسل هناك.

سألها: أتعـرفين أن هـذه أول مـرة آتـي فيهـا إلـى الإسكندرية؟..

-كيف.. ألست من عائلة ميسورة؟..

- لا أنا من عائلة متوسطة الحال. كافحت أمي وكافحنـا معها.

- ألهذا لم تكن في هيئة التـدريس بإحـدى الجامعـات بكليات الطب؟..

- ليس هذا هو السبب. إنما السبب أنني لم ألتحق بهيئة التدريس من البداية.. أولاد الأطباء اسـتولوا علـى المراكز الرئيسية لكني لم أيأس وتقدمت للدراسـات العليا رغم مشاغلي في العمل.

- ألم يكن والدك طبيباً مثلاً؟..

- لا.. لم يكن.

- إذن.. ماذا كان يعمل؟..

- لا أعرف.. لقد تركنا منذ صغري ولا نعلم عنه شيئاً.

- كأنك قضيت طفولة تعيسة.

- استطاعت أمي أن تبعث الأمل في أنفسنا. وأن تحثنا على تحصيل العلم والعمل بجد واجتهاد.

- وما السبب في ترك والدك لعائلتك؟..

- لا نعرف السبب حتى الآن. ربما نلتقـي بـه يومـاً ويقول لنا الحقيقة. على العموم لا أهمية لذلك ما دام الإنسان يشق طريقه وأصبح علماً.

- أتريد أن تقول عن الإنسان يمكن أن يكون شيئاً دون أبويه.

- لا شك أن الوالدين يساعدان لكن ليس وجودهما أمراً أساسياً في حياة الإنسان.

- إن الطموح هو الذي يدفع الإنسان إلى الترقي.

- لكن على الأقل واحداً منهما يكفي ليبذر بذرة الطموح في الإنسان.

- أوافقك.. فقد غرست فينا أمي تلك البذرة. ولكن تمكن مثلاً الشيخ عبد الحميد أخي من أبي. أن يشق طريقه في الحياة رغم أن أبانا هجر عائلته - هو الآخـر - وماتت أم الشيخ وهي في مقتبل العمر.

- أخوك.. تقول أخاك.

- نعم فقد اكتشفنا أن أبي كان له فـي كـل محافظـة زوجة. اكتشفنا حتى الآن أربع زوجات.

- إذن.. قد يكون ذلك هو سبب الهجـر. إنـه يتـرك الواحدة ليتزوج الأخرى.

- ذاك لغز لم نقدر على حله. ولا يجوز أن نظلم الرجل لأن بين الزيجة والأخرى فترة زمنية مجهولة. فقـد يكون هناك ما يمنعه من الاستمرار في الزواج مـن الأولى وتزوج الثانية بالصدفة.
- من ذلك الذي يترك أولاده صغاراً ويعيش بعيداً عنهم لينعم بأخرى.
- ربما فقد الذاكرة.. ربما الجنـون.. ربمـا ظـروف قاهرة.. الله اعلم. لقد استرسلنا في الحديث عن أبي. ونسينا الحديث عن أنفسنا.. تعالي إلي أتمتع بك.

الفصل الرابع عشر

وجد الدكتور عادل أماني زوجته الممرضة في المستشفى، تسير بعد عودتهما من شهر العسل، ترتدي الثياب البيضـاء، وتباشر عملها.

قبض على يدها بقوة، وسألها بهمس: ماذا تفعلين هنا؟..

قالت، وهي تحاول أن تتملص منه: أعمل مثلما تعمل.

قال غاضباً، وهو يخرج الكلمات بصوت كـالفحيح، ولا يزال قابضاً بشدة على ذراعها البض: ألم أقل لك إنـك لـن تعملي. ووافقت، لذلك تزوجتك.

قالت دون أن تجرؤ على النظر إلى عينيه الثاقبتين: لقـد تزوجتني وأنا أعمل. ولا زلت أعمل. وإذا كنـت لا تريـد للسادة الأطباء ألا يعرفوا أنك تزوجت من أماني الممرضـة، فلن يعرفوا يا دكتور.

قال بغضب وهو مقطب الجبين: عودي إلى البيت الآن.

قالت وهي تتملص منه وتمضي مصرة على موقفها:

- لن أعود.

سألها، وهي لا زالت قريبة منه: ألم أقل لك قبل الزواج لم لم تقدمي استقالتك، فقلت لي إنك سوف تتغيبين عن العمـل

ويتم فصلك منه بسبب الغياب. وبذلك لا يشـعر أحـد أنـك تستقلين من أجلي. وأن مصادفة قيامي بإجـازة فـي وقـت تقومين فيه بإجازة.

قالت: حصل.. ولكني عدلت عن رأيي. لا أمان لرجـل. وظيفتي هي سندي في الحياة. ويمكنك أن تنقلني من القسم بل تنقلني إلى مستشفى آخر لو شئت. وسوف أقبل النقـل ولـن استقيل وسأستمر أعمل في المستشفى الآخر.

تركها وهو يحدث نفسه: لعل الكموني صادف من نسـائه عدم الطاعة، فترك لهن البيت وهرب. وهل سـوف تهـرب أنت الآخر يا دكتور عادل؟.. أتركها تعمل مادام أن أحداً لن يعرف أنك متزوج منها. أو أنقلها كما قالت لك إلى مستشفى آخر. وإذا تم نقلها إلى خارج أسوان فماذا أكون قـد جنيـت وماذا سوف تفعل يا سعادة الدكتور المبجـل وهـي بعيـدة عنك؟..

ووجد الدكتور عادل أن شيئاً لا ينقصه. يجد طبيخاً فـي الغداء. ويتناول طعام العشاء إذا طلبه. وينهض من النـوم مبكراً فيجد الشاي والجبن والمربى والبيض جاهزة كلهـا.. يشرب القهوة ويدخن السيجارة بعد أن يفطر. ويخرج وحـده

إلى المستشفى يتدحرج كأنه كتلة من اللحم. ويجد أن أمـاني قد سبقته إلى المستشفى وباشرت عملها بهمة. لم تقل لأحـد أنها تزوجت مدير المستشفى. إنما تزوجت رجلاً.. والرجال سترة النساء. حتى إذا ما حملت لا يظنون أنها حملت سفاحاً. ولم يعلن الدكتور عادل أنه تزوج من أماني. إنما امـرأة لا تفارق البيت. وكان من طبعه يحب الوحدة قبل الزواج وقلـة الأصدقاء. فاستمر على منواله بعد الزواج. ولم يقبل أن يأتي واحد من الأطباء لتهنئته بالزواج ولا حتى أخوه نصير. أنت تحيا يا عادل حياة عجيبة. ربما الكموني كـان يحيـا هـذه الحياة. متفرد مثلك متعال مثلك متباعد مثلك. ولكـن كيـف تعرف أنه يحيا هذه الحياة؟.. إن أحمد أخوك لا يزال يفـتش عن حياة الكموني العجيبة التي أورثها لابنه عادل!.. وهـل هناك ما يثبت أننا نرث حياة آبائنا؟. هل الأب لو كان بائسـاً يكون الابن بائساً مثله؟. ألو كان مرحاً فيكون ابنـه مرحـاً بالتبعية؟.. ألو كانت امرأته تعذبه فيكون مثل أبيه يعـذب؟.. سأحاول أن أجرى بحثاً في هذا الصدد. وربما اكتشف مـثلاً أن سيناريو الأب يرثه الابن من بعده. أي أن ما يمثلـه الأب على مسرح الحياة لابد أن يمثله الابن من بعده. أنت مخطئ

يا سيد عادل أفندي. يوسف وهبي الممثل الفنان لم يكن أبـوه ممثلاً ولا فناناً.. فاتن حمامة لم تكن والدتها ممثلة أو فنانـة لكن ابنتها مثلت وكفت عن التمثيل ولم تمض فيه مثلها. ربما مثلاً محمود ياسين أورث الفن لابنته رانيـا. أو إسـماعيل ياسين أورثه لابنه ياسين لكنه لم يكن ممثلاً إنمـا مخرجـاً. يمكن أن نقول إن السيناريوهات تتشابه في بعـض الأحيـان ويختلف في البعض الآخر. فلم يكن أبـي طبيبـاً مـثلاً ولا صحفياً ولا حتى شيخ معمم مثل الشيخ عبد الحميد؟..

في ذات يوم تقدمت أماني الممرضة إلى مدير المستشفى الحكومي طلباً بإعفائها من عملها، فأنشرح صـدر الـدكتور عادل، ووافق على الفور. ولكنه فوجئ في اليوم التالي بعـد أن جهزت له المائدة أنها في الطريق إلى العمـل. ترتـدي المعطف الأبيض وتأخذ حقيبتها السوداء وتمضي. سألها: إلى أين؟..

تقول: إلى العمل الجديد.. مستشفى استثماري لـيس فيـه مريض مصري.. كلهم مرضى أجانب جاءوا للاستشفاء.

امتعض الدكتور عادل، كان يظن أن أماني رضخت لطلبه وأنها ستصبح سيدة منزل. غير أن آمالـه تحطمـت علـى

صخرة إصرارها على العمل وطموحها الذي لا حدود لـه. وقال: مادام الأمر بعيداً عن المستشفى فلا بأس به. حتـى لا يعرف الجميع أن مدير المستشفى متـزوج مـن ممرضـة بالمستشفى.

هاجم الدكتور عادل نفسه ساعة هجوماً عنيفاً. أتهم نفسـه بالعنصرية ثم الطبقية. وأنب نفسه لأنه تزوج ممرضة وهـو يترفع عن وظيفة الممرضة. فأماني متعلمة ولديها دبلوم في التمريض غير أنه يشعر أنها أقل منه مستوى. يشعر بالترفع ولا يتمكن من الفكاك من هذا الشعور. ثم يعيد التأنيب علـى نفسه، ومن هي المرأة التي كانت سـتتزوج رجـلاً تخطـي الخمسين من العمر قدم في الخارج وقدم في القبـر. أعقـل وتقبل الأمر الواقع.

غير أنه فرح بعد أيام حينما أعلنته أنها ستُرزق بطفـل. ظن الدكتور عادل أن الحمل قد يعوق أماني عن العمل، غير أنها أصرت أن تذهب إلى عملها، وبطنها بدأت تتقدمها. ولم يجد بداً من أن يشكوها لأبويها. وقال لوالدها في زيارة لـه رغم ندرة الزيارات إليهما: إن أماني نكثت بعهدها. عاهدتني ألا تعمل بعد الزواج غير أنها لم تعبأ بعهدها بعد الزواج.

تدخلت الأم التي كان يظن أنهـا منكسـرة ولا تـتكلم إلا قليلاً: لقد شعرت أماني أنك تحس بالعار من أن تعمـل فـي المستشفى، فعملت في مستشفى آخر بعيداً عنك حتى تجنبـك ما تشعر به من عار.

قال الدكتور مردداً ما قاله: هذا ما لم نتفق عليه.

قالت الأم، والأب صامت كأنه ترك القيادة لـلأم: العمـل ليس عيباً يا بني.

قال الدكتور عادل وهو يظن أنه يفحمها: ولم لا تعملـين أنت الأخرى؟..

ضحك الأب وقال: ذلك لأنها لا تحمـل شـهادات مثـل أماني. ولا يجوز أن تقضي المرأة أكثر من اثنتي عشرة سنة تتعلم، ثم تقبر هذا التعليم.

قال عادل مجادلاً: أعتقد بعد أن حملت فـلا داعـي لأن تعمل.. وإذا ما ولدت تتفرغ لأبنها تربيه.

قالت الأم فرحة: فلتعمل، فأنا أربي لها الولد أو البنت.

تدخلت أماني قائلة: أنا أعمل لأن ذلك سلاح في يدي، فإذا فقدت السلاح فكيف يتسنى لي أن أهاجم الفقر إن هاجمني.

قال عادل مناطحاً إياها بالحجة: وأين ذهبتُ.؟..

تدخلت الأم وهي ترمق زوجها. لا أمان للرجال.

الفصل الخامس عشر

دخلت عليه مكتبه في الصحيفة، تذكرها على الفور، تلـك الصحفية التي كانت تنظر إليه بتمعن، حينما ذهب إلى زيارة أخته علا، لتأخذه إلى أمها، ولم تقم مثل بـاقي الصـحفيات اللاتي كن على المائدة مع علا. وقالت له بهـدوء: قـرأت مقالاتك عن نصرت أمين الكموني، وأنا عندي الحل للمشكلة التي تحيرك؟..

استغرب كلامها فهو لا يسأل الناس حلاً إنما يريد أن يقرأ الكموني ما كتبه، فيتحرك من مكمنه ويظهر. وقـال وهـو يصافحها ويدعوها للجلوس: أي مشكلة؟..

قالت: المشكلة التي تكتب عنها.. والتي تريد أن تجد لهـا حلاً لدى أم الزميلة علا.. ولدى الأمهات الأخريات.

سأل بتوجس: لا أفهم.

قالت وهي مرتبكة لأنه لم يفهمهـا: مشـكلة الأب الـذي غاب. وتريد أن تعرف سبب غيابه.

سأل: هل أنت أخت لنا لم نكن نعرفهـا وتعـرف مكـان نصرت أمين الكموني؟..

قالت: وهي تضحك: لا.. لا.. ليس الأمر كـذلك. إنمـا جئت لأضع أمامك تفسيراً لغياب الأب عن عائلته القديمـة. أحاول أن أصل للسبب.

سأل: وما هو السبب في هجر الأب لعائلة بعد الأخـرى وترك أبنائه صغاراً في كنف الأم؟

قالت: السبب فسيولوجي بالطبع؟..

قال: لم أفهم.

أجابت: أقصد أن النساء اللاتي كن يلتقين بالكموني ...

قاطعها قائلا: أنت إذن تقرئين ما أكتب؟..

قال: وحكت لي علا الحكاية من طقطق إلى سلام عليكم.

سأل: وما هو التفسير البيولوجي يا سيدتي؟..

قالت: آنسة من فضلك رغم أن سني ثلاثة وثلاثين سـنة. وأقول إنه تفسير فسيولوجي وليس بيولوجياً.

قال مردداً: ما هو تفسيرك يا آنستي؟..

قالت: يبدو أن النساء اللاتي كان يتـزوجهن الكمـوني.. والدك على ما اعتقد.. كن جميعاً لديهم الرغبة الجنسية حادة عالية لدرجة أن الكموني كان يهرب منهن.

قال أحمد ساخراً: لا أعتقد أن هذا هو التفسير المقبـول.. لأن أمي لم تتزوج من بعد أن غاب عنها أبي.. وأم الدكتور نصير المقيمة في أسوان تزوجت بالفعل لكن لرعاية ولـديها من الكموني.. والأم الثالثة لم تتزوج.. وهي أم علا ولـم تطلب التطليق من المحكمة.. أما الرابعة فقـد ماتـت.. ولا أعتقد أنها تمارس الجنس في القبر.

وظهرت عليه الجدية حتى يعرف تأثير الفكاهـة عليهـا. غير أن الفتاة تناولت تأثيره دون أن تضحك، ربما لأنها لـم تكتشف النكتة في كلماته الساخرة. ثم ابتسم ليشعرها أنه يلقي نكتة، غير أنها قالت على الفور: إذن يكون التفسير المنطقي هو العكس. أن الكموني كان فحلاً.. بحيث لم يكـن تروقـه امرأة كثيراً فيهجرها بعد سنوات قليلة.

قال أحمد وهو لا يزال يبتسم: وهذا التفسير غير منطقـي أيضاً لأن الكموني لم يكن فحلاً. كل زوجاته الثلاث قلن إنه كان يستغرق طويلاً في عمله من الصـباح إلـى المسـاء.. ويعود مهدود الحيل يأكل وينام؟.. فمتى يلمسهن ومتى يلتمس الراحة لجسده.. أنت يا آنستي تذكريني بتفسير فرويد للأحلام فقد كان يفسرها تفسيراً جنسياً. بل كان يفسر تصرفاتنا على

أساس من الجنس. الولد يحب أمه والبنـت تعشـق أباهـا. والحياة كلها تتركز عنده في الجنس.. هل أنـت تمارسـين الجنس بشدة؟..

أحمر وجه الفتاة، وقالت محتجة: أنا لا زلت عذراء.. ولم أتزوج بعد.. ولم أمارس الجنس أبداً. ثم أنا لا أسمح لـك أن تكلمني بهذه الطريقة.

تمادى أحمد في الخروج عن المألوف، فقال لهـا كأنمـا يصفعها: إذن أنت تشتاقين مثلاً لرجل فحل يضمك إليه؟..

نهضت الفتاة وهي تقول: ما هذا الكلام يا أستاذ أحمـد.. أنت تهينني بهذه الطريقة؟..

قال كأنما أحس أنه أذنب في حقها: ما رأيك لو ذهبنا معاً لتناول الغذاء لنطفئ هذا الجو الذي تكهـرب فجـأة بسـبب صفاقة صحفي؟..

وافقت بعد رفض بات، وبعد لأي قبلت. وذهبـت معـه مصطنعة الامتعاض . ولما دخلت معه المطعم، تطلعت إليـه كأنها ارتكبت ذنباً، وسألته أن تغادر، غير أنه أصر قـائلاً: أريد أن أعرف أشياء كثيرة عنك؟..

سألت: مثل؟ ...

قال: مؤهلاتك.. ثقافتك.. أسرتك..

سألت: وما السبب؟..

قال: ربما لمحت فيك أشياء أعجبتني.

قالت بعد أن جلست: أنا صحفية عادية وخريجة آداب قسم علم نفس.. أقرأ بنهم.. أسرتي متوسطة الحال.. والدي توفي.. وأمي سيدة عجوز.. لي أخوان تزوجا في سن مبكرة ولا يعيشان معنا . لم أفارق أمي لأنها عجوز لذلك لم أتزوج.. هل هذا يكفي؟..

قال: وإذا تقدم لك شاب في السابعة والأربعين.. هل ترضين به زوجاً؟..

قالت: بشرط ألا أفارق أمي.

قال: معنى ذلك أنه سيعيش معكما في منزلكما.

قالت: هو كذلك.

قال: لكن ذلك معناه أن يترك أمه تعيش وحيدة. أخوه تزوج ويعيش في أسوان.. وأخته تزوجت وتعيش في شقة على النيل. ولم يبق غيره مع أمه فكيف يتركها؟..

قالت: أقول لك حلاً يرضي جميع الأطراف. ثلاثة أيـام عند أمي.. وثلاثة أيام عند أمه.. واليوم السابع يغادران البيت إلى الإسكندرية.. بور سعيد.. فندق في وسط البلد.

ضحك وهو يقول: هذه تكاليف تعارض نظام الـزواج.. نظام الزواج ابتكر من أجل اختصار المصاريف.. لكن فـي حالة ذلك العريس سيؤثث شقة أمه من جديد. وسيؤثث شـقة أمها من جديد أيضاً.. وسوف ينفق على مصـاريف الفسـح الأسبوعية.. مبالغ طائلة هما أولى بها.

قالت: بلا فسح.. فليقضيا يوم الجمعة عند أمه.. والجمعة التالية عند أمها.. ولا داعي لإعادة تأثيث الشقة.. يكفي مـا في الشقتين من أثاث قديم.

قال أحمد: سيكون ذلك أعجب زواج في التاريخ.

الفصل السادس عشر

كان الوضع مع أحمد ولطيفة بعكس الوضع مع الـدكتور عادل وأماني. كان أحمد من المنادين بعمل المرأة، ولطيفـة من المناديات أن تبقى في البيت سواء بيت أهلهـا أو بيـت عدلها.. فلم إذن تشتغل؟.. اشتغلت حتى أجد قوت يـومي.. ولم إذن لم تقدمي استقالتك بعد أن تزوجت. أحببت عملي ولا أريد فراقه. حقاً أنا مترددة لكن لا أقدم على الاستقالة. وهكذا كانت تهدده كل يوم بأنها سوف تبقى في البيت ولا تفعل. ولم يعد أحمد يهتم لأنه أدرك أنها مجـرد أفكـار تراودهـا ولا تستطيع تنفيذها. ولو أنه بدأ يحثها على الاستقالة حينما تركت أمه البيت لتعيش مع ابنتها سعاد في شقتها المطلة على النيل. وقد دعتها سعاد لتعيش معها لتربي لها طفلها.. طفل العجائز كما كانت تسميه سعاد. وانتقلـت الأم للعـيش مـع سـعاد واعترض أحمد كثيراً على انتقالها، غير أنها أصرت، كـان يريد منها أن تبقى حتى لا يضطر إلى البقاء في بيت حماتـه على طول الخط، ولكن لم يغير عاداته وأصبح ينتقل إلى شقة أمه حتى لا تضيع منه ويظل فيها ولو لمدة ثلاثة أيـام كمـا كان اتفاقه مع لطيفة قبل الزواج.. وجاءت لطيفة تخبره أنها

سوف تترك عملها، لكن في الصباح ارتدت ثيابها، وسـألها: إلى أين؟. قالت للعمل..ألم تتزوجني وأنا أعمل!!..

سخط أحمد على زوجه المترددة أبداً. تفكـر فـي فكـرة وتهرع لتنفيذها ثم تتوقف لتنفذ نقيضها. ربما يكون السـبب في هجر الكموني زوجاته أنهن كن مترددات. لم يقبل الرجل المرأة المترددة فهجرها. لكن أمه لم تكن متـرددة. حملـت مدخراته وافتتحت محلاً لا يزال يعمل حتى الآن رغم انتقالها إلى العيش مع سعاد. ولازالـت تـذهب للإشـراف عليـه. ووعدت سعاد أن تتفرغ لطفلها حينما تنجبه لكنها تحمله معها الآن إذا ما عزمت الذهاب إلى المحل. وكانت تترك البيـت يومي الخميس والجمعة حينما يأتي المقاول زوج سعاد ليبقى معها هذين اليومين. وتذهب للعيش في بيتها. وتقفل عليهـا حجرتها ولا تحاول الاتصال بأحد إذا استمرت في البيت ولم تذهب إلى محلها. كانت لا تستاطف لطيفـة. كانـت لطيفـة تكلمها في الصحافة والصحفيين. وكانت هـي تكلمهـا فـي البقالة والبقالين. لم يكن بينهما لقاء في الحديث لذلك اعتزلت لطيفة كما اعتزلتها هي الأخرى. ورغم أنهـا تركـت فـي المحل شاباً أميناً يرعاه في غيابها إلا أنها كانت تذهب لتتفقد

الوضع هناك وتقبض الإيرادات أو تـأمر بشـراء بضـائع وتعطي تكاليفها.

غير أن أحمد استمر يبحث عن الكموني. وذهـب إلـى الشيخ عبد الحميد ليسأله عن بعض مواقف الكمـوني مـن الناس الذين كانوا حواليه. طلب منه أن يحكي له. غيـر أن عبد الحميد لم يكن يذكر شيئاً لأنه كان صغيراً وأحاله علـى أبي الدكتور عامر ليسأله في أسوان. كان يدرك أن أبا عامر يعرف عنه أكثر منه .

عرض أحمد على أبي عامر ملامح الكموني كما وصفتها أم علا زوجه الثالثة، غير أنه لم يكن يتذكر شيئاً. وكان قـد عرضها من قبل على أمه فأخبرته أن الملامح فعلاً قريبة من الأصل. ولذلك ذهب إلى أم الدكتور نصير وعرض عليهـا وصفاً للملامح فأقرت بها لذلك لم يرتاب أحمد يومـاً بـأن الكموني أب لكل هؤلاء الأبناء الذين يعرفهم. لكن ما فائدة أن يعرف الملامح؟. إنه فقط يتأكد أن الأب واحـد لكـل هـذه العائلات.

قابل أحمد مرة أخرى الشيخ العجوز أبا عامر ووصف له الملامح مرة أخرى فأقر بالفعل أنها ملامح نصـرت أمـين

الكموني. وإذ به يسأله: فيم تفيد وصف ملامح الكموني يـا أستاذ أحمد، والأصل غائب؟.. قال أحمد: نريد فعلاً أن نرى الأصل لكن متعذر الوصول إليه.

انضم الشيخ عبد الحميد إليهما ولما عرف الهـدف مـن زيارة أحمد، قال: يريد الأستاذ أحمد أن تروى له تفاصـيل عن علاقة أبي بأمي. وعلاقتك به.

قال الشيخ أبو عامر: الحقيقة أنني لم أكن خليلاً للكموني. كان متباعداً.. لكن في اللقاءات القليلة به كان يوصيني بكم.. أنت وأختيك. ولا يلبث كثيراً معي بل لم يكن يمكث كثيراً مع أمك. ولكن أمك كانت تعترف أنه كريم معها. يغدق عليهـا وعلى أولادها. ولا يبخل أبداً عليهم بشيء غير أنـه كـان مشغولاً بعمله. يحب الانطلاق وحده. يـؤدي عملـه لأحـد المتاجر الكبرى. يقـوم بتوصـيل الطلبـات إلـى الزبـائن والمحلات الكبيرة والصغيرة. كان المحل الذي يعمل به محلاً للبيع بالجملة. وكان هو أحد الموزعين الأكفاء به. وقد قـال لي صاحب المحل يوماً أنه أكثر العاملين لديه أمانة. وأنه لا يكذب أبداً. ويتكلم قليلاً. وينفذ الأوامر بدقة ولم يخب ظنـه فيه يوماً.

قال أحمد: ذلك ما سمعته من زوجاتـه الثلاثـة اللاتـي عرفتهن. ولا أدري هل له زوجات أخريات.

قال أبو عامر: لا أدري أسباب هجره لعائلاته المختلفـة. ربما كانت هناك أسباب ضاغطة هي التي جعلتـه لا يعـود إليهم. لكن سيظل الأمر لغزاً في نظري حتى يظهر الكموني يوماً ويبوح بالسر.

قال أحمد: إنه سر فعلاً. ويبدو أنه مشـتق مـن اسـمه الكمون. فالكموني نسبة إلى الكمون وهو الأمر غير الظاهر. كأنه هو اللغز كامن.

ضحك الشيخ عبد الحميد وهو يصحح له: ولم لا تقول إنه نسبة إلى نبات الكمون.. لعله سمى نفسه بـذلك لأنـه كـان مغرماً به.

ضحكوا جميعا والدكتور عامر ينضم إليهم.

الفصل السابع عشر

وجد نفسه هو الوحيد الذي يبحث عن أبيه. أخوه الدكتور عادل أنشغل بعروسه الجديدة، وأخوه الدكتور نصـير بـدأ يبحث عن عروس. وأخوه الشيخ عبد الحميـد انشـغل فـي دراساته العليا في القاهرة، حينما نُقل من أسيوط مؤقتاً إلـى معهد ديني في القاهرة، ليكون بجانـب الأزهـر الشـريف. وتزوجت أختاه وانشغلتا بزوجيهما بعـد حصـولهما علـى البكالوريوس والليسانس. وكذلك أختا علا تمـت خطبتهمـا وتفرغتا لحياتهما الجديدة، وهو بعد أن تـزوج مـن لطيفـة الصحفية وهدأت الأمور بينهما وصار لا يهمه إن عملت أو أقلعت عن العمل، لم يجد غير الكموني يشغل تفكيره. فعـاد يكتب في صفحة الحوادث قصته مسلسلة تحت اسـم: أيـن الكموني؟.. وطلب من القراء أن يدلوه على مكانه لو كـانوا يعرفون. ولم يصل إلى ذهن القراء أنه يبحث عن أبيه فقـد كان يوقع باسم أحمد أمين. ولم يربط القراء بين اسمه واسـم أبيه نصرت أمين الكموني.

سخر منه أحد القراء وقال له إنه يبحث عن أربع رجـال لا رجل واحد.وللصدفة البحت تشابهت الأسماء. فظن أنهمـا

رجل واحد. لعل الأول خرج للجهاد في سبيل الوطن ومـات في حرب بور سعيد أو لعله استشهد. والثـاني عـاش فـي أسوان ولم يخرج منها ومات مع من ماتوا في سـبيل بنـاء السد العالي. والثالث ربما هاجر خـارج الـبلاد تاركـاً الأم الثرية صاحبة المطعم في القاهرة وذلك لكي يكون نداً لهـا، فشغلته الدنيا عن العودة. أما الرابع فقد يكون لحق بزوجـه التي ماتت حينما عرف أنها توفيت فلم يستطع صبراً علـى الحياة دونها فأسلم الروح.

ضحك أحمد من هذا القارئ، وأكد للقـارئ أن الملامـح التي وصفتها الزوجة الثالثة وعرضها على الزوجتين الأولى والثانية تؤكد أن نصرت أمين الكموني هـو رجـل واحـد، تزوج هؤلاء النساء الثلاث. بل إنه عـرض وصـف هـذه الملامح على ذلك النوبي الطيب فأكد أنها ملامـح نصـرت أمين الكموني، ذلك الرجل الذي تزوج أم الشيخ عبد الحميد.

سخر قارئ آخر من أحمد أمين، وقال له إنه يتكلم عـن رجل مغرم بالزواج، له في كل مدينة امرأة أشبه بالبحار له في كل ميناء سيدة يلجأ إليها ليتدفأ عندها، ولعلـه أكتشـف النساء الأربع بالصدفة وقد يكون هناك أكثر من امرأة. وعليه

أن يعلن لأولاد وبنات الكموني أن يحضروا إلى الجريدة في القاهرة فسوف يأتون زرافات، وسيتأكد في ذلك الوقـت أن الكموني له أولاد أكثر من الذين عثر عليهم بالصـدفة ذلـك الصحفي الهمام مدير إدارة الحوادث في الصحيفة الغراء.

ولم يستطع أحمد أن ينفي أو يثبـت أن للكمـوني أولاداً وبناتاً آخرين. إلى أن جاءه خطاب ضخم يقول فيه صاحبه:

" أؤكد لك أن الكموني شخص واحد وليس عدة أشخاص. ولم يكن مغرماً بالزواج بل اضطر إلى الزواج صيانة لنفسه. وقد نشأ الكموني في حضن امرأة كانت الوصية عليه وعلى أمواله، لا يمكن أن تفصلها عنه أو ينفصل عنها. تزوجته لما شب عن الطوق. لم يكن يعرف نساء غيرها عاش في كنفها دهراً، وهو صغير ولما نضج شعر أن المرأة لا تحبه، إنمـا تريد أن تمتلكه، وتصير جزءاً منه ويصير جزءاً منها، تريد أن تسيطر عليه وتسيطر على أمواله، ولم يكن يعرف أن هذه الضياع التي تحيطه من كل جانب إنما هي ملك له، وأن هذه المرأة التي تزوجته وصارت جزءاً من كيانه هـي الوصـية عليه.

كانت المرأة ساحرة فاتنة جميلة للغاية، تأمر بعينيها وجسدها وروحها، غير أنه كره ذلك الأسر. ولما اكتشف أن في الضياع أولاداً يلعبون وبنات يمرحن، اشتاق أن يكون له ولد أو بنت. غير أن الزوجة الجميلة الفاتنة كانت أرضاً غير خصبة فلم تنبت فيها شجرة. وضاق الكموني بهذه المرأة وسحرها وفتنتها، وهرب من أسرها. ورغم ذلك عاش في تعاليمها لا يفك منها. وسكن في الجيزة في حجرة فوق أحد أسطح عمارة ليست كبيرة. رغم أن صاحبها يؤجر حجرات فوق سطحها لتزداد أمواله. وكان الكموني لا يهتم بالمال ولا بالجاه ولا بالشهرة ولا بالسلطة. كان يريد أن ينطلق بعيداً حتى عن الشهوة. وحينما وجد وظيفة مندوب مبيعات للسجائر في شركة ماتوسيان. كان أجمل أيامه أن يأخذ دراجته ويطوف بها على المحلات يبيعها السجائر. ويقبض أثمانها أو يؤجل القبض إلى يوم آخر حينما يكون لدى العميل قدرة على الدفع. تحول حبه للانطلاق إلى عبادة. لكن حينما رأي سنية الآسرة الجميلة الفاتنة، عرف أنه سيعوض بها عن حكمت الوصية المستأسدة المستبدة الراغبة في التملك البعيدة عن الحب ولكن في نفس الوقت عادلة

رحيمة ولا يزال يعيش في إسارها. تزوج من سنية ولكن لم ينس أن يمارس الانطلاق. صار الانطلاق طبيعة فيه، يشعر به وهو يركب دراجته ويطوف بها على الزبائن وأصحاب المحلات والأكشاك والأسواق الكبيرة. يشعر بذلك أنه يمارس حريته.

أنجبت سنية عادلاً وأحمد وسعاداً. وكان الفارق بين عادل وأحمد سنة واحدة والفارق بين أحمد وسعاد سنتان. شعر الكموني وقتها أن سعادته اكتملت ولو أنه كان يواجه الفقر. ولما قارن بين حياته مع حكمت المستبدة الطاغية الثرية وسنية الحنون الرقيقة تطلع إلى الحياة مع الأخرى. ولم يفكر في الحياة مع حكمت ولو أنه لا يزال يسير حسب ما علمته ولم يفكر في العودة إليها رغم النعيم الدائم والثراء الفاحش لأنه أصبح يهوى الانطلاق. وسنية لا تقف في سبيل انطلاقه. غير أن حكمت الآسرة كانت تبحث عنه. أرسلت أعوانها للبحث عنه في كل المدن. تركوا الحصن الحصين الذي كانت تقيده فيه للذتها ومنعتها وإرضاء شهوة التملك لديها ليبحثوا عنه في المدن حتى وجدوه أخيراً، يركب دراجته وينطلق يوزع السجائر على العملاء.. وترصدوه

حتى تمكنوا منه. وأعادوه من جديدة إلى الوصية تلك التـي قررت أن تملكه من جديد إلى الأبد. وجد الكمـوني نفسـه محاصراً بعد أن كان منطلقاً. وكرجل عاقل استسـلم لهـذه المرأة الآسرة مرة أخرى. ولما حانت فرصة الهرب مرة ثانية فأفلت من الحصن، سافر في هذه المرة بعيداً إلى أبعـد بلاد المحروسة، سافر إلى أسوان... هناك لن يتسنى لحكمت المستبدة أن تعرف مكانه ولا حتى رجالهـا، فكيـف يفكـر أعوانها أنه لجأ إلى مدينة مهجورة لا يرتادها حتى السياح إلا في الشتاء كمشتى . وهناك اشـتغل لـدي الرجـل الطيـب صاحب المتجر الكبير الذي يبيع بالجملة عم حمزة كما كـان يدعوه الناس. اصبح موزعاً لبضاعته على تلـك الحوانيـت التي افتتحت مؤقتاً عند السد العالي، ولعلها اختفت بعد أن تم بناؤه. وزف إلى ابنة الرجل أنيسة، تلك التي كانت ولوداً مثل سنية، فأنجبت له نصيراً وأنجبت له زينب. غير أن الكموني كان قد عشق الانطلاق من جديد، ولكن لـم يـنس عائلتـه فاستمر يود أنيسة، ويود ولديها. ويبدو أن حكمـت القويـة كانت مستمرة في البحث عنه. كانت لا تزال تبحـث عـن غزالها الشارد، فتصادف أن رأت في مشهد رائع من مشاهد

افتتاح السد العالي الكموني بلحمه وشحمه واقفاً يتأمل تفجير السد الترابي المانع للماء من التدفق في جسم السـد. ظهـر صدفة في التلفزيون، فأمرت رجالها للقبض على الكمـوني وإعادته من جديد إلى عش الزوجية ذلك السـجن المقيـت. وتمكن الرجال من توثيق الكموني، ودفنه في سيارة متجهـة إلى الحصن المنيع في الوجه البحري.

عاد الكموني من جديد إلى حكمت الفاتنة الآسـرة التـي تمتعه وهو كاره لها. ولا يعرف أن الأموال التي تضع يدها عليها هي أمواله. وأن الحصن الذي تحتمي به مـا هـو إلا حصنه. وأنه يمكن أن يطلقها ويطردها. وقد دنا الكموني من الخامسة والثلاثين وظل على جهله لأن التفكير في الهـرب كان شاغله الشاغل. وعاد الكموني من جديد لإظهار ضـعفه حتى تستكين الفاتنة وتأنس إليه وتفكر أنه خضع للأبد. وبـدأ يشاركها أعمالها في الحقول المتراميـة، وهـو يعـرف أن الرجال يترصدونه ويراقبونه وإذا حاول أن يفلت فلابـد أن يقبضوا عليه. كانت حكمت تكبر الكموني رغم أنهـا تبـدو فائضة الشباب، فأخذ ينتظر أن يراها تذوي لكنها لـم تكـن تذوي. كان شبابها غضاً يكاد لا يهزم. وأفلت الكموني للمرة

الثانية من تلك المرأة التي أسرته. في هذه المرة لم يذهب إلى أسوان إنما ذهب إلى أسيوط. موقـع وسـط بـين القـاهرة وأسوان. هناك اختبأ الكموني في نفس المهنة. مهنة منـدوب مبيعات. حيث يعثر على انطلاقه تزوج الفقيرة البائسة اليتيمة زبيدة ، رغم فقرها وبؤسها كانت كالزبد. ويبدو أن هنـاك أناساً ينضجون في الفقر والبؤس جمالاً وحلاوة. وأنجبت له عبد الحميد ورقية وكاملة. وعـاش معهـم أيامـاً تملؤهـا السعادة. وتمتع بها فقد كانت نعم الزوجة المطيعـة القـادرة على تحويل الفسيخ إلى شراب طهور. واستمر الكموني فـي انطلاقه يعمل لدى أحد تجار الجملة ويـوزع بضـائعه فـي القرى والنجوع القريبة من أسيوط. ويد جاره عمران الـذي كان له ابنا اسمه عامر. نوبي من الذين هاجروا مـن بـلاد النوبة لما بدأ السد العالي يفيض عليها مـن بحيرتـه. ولاذ بأسيوط رغم أن أقرانه عـادة مـا يلجئـون للعـيش فـي الإسكندرية أو القاهرة. ولم يترك زوجه مع أهلها في أسوان إنما اسكنها معه في شقته في أسيوط بجانب شقة الكمـوني. كان الكموني يشعر بالخطر يترصده في كل لحظة من تلـك المرأة المتحصنة بأملاكه.. والتي صبغت كل شـيء فيهـا

بصبغتها. والمتمتعة بخيره وتريد أن تمتلكه. وفعلاً تمكنـت منه للمرة الثالثة. إذ أوحى لها إلهامها أن مـن الممكـن أن يكون الغزال الشارد مقيماً في وسط البلاد، ولم يكن الوسـط غير أسيوط، فبعثت برجالها للبحث عنـه وقبضـوا عليـه وعادوا به.

في هذه المرة كانت الفاتنة تحولت إلى عجـوز، سـقطت أسنانها، وخف شعرها، وتغضن جلدها، وما زالت تهوى أن تمتلك قلب الكموني. ورسم خطته بأن يتحول من الخضوع للمرأة المستبدة إلى إخضاع لها. وواجهها بأنها لص سـرقت أمواله وممتلكاته، ووضعت يدها عليها بغير حق، وتصرفت فيها على هواها، وحرمت أبناءه منها، هي المرأة العاقر التي لا تلد ولن تلد، وأنه يطالبها بكل أمواله وإلا سوف يطالبهـا بذلك أمام المحاكم، وسيثبت بالبرهان القاطع أن الأموال ملك له، و أنها استحلت كونها الوصية عليه واستولت على كـل الأموال والممتلكات. وبهتت المرأة من الرجل الجديد. ولانت حكمت لكنها لم تفرط في الثروة. صارت تحميها مـن بعيـد واستمالت الكموني لينشغل بإدارة الثروة. حتى لا يهرب من جديد. ولم يصدق أعوانها أن الكموني هو صاحب كل هـذه

الضياع وأنهم يجب أن يأتمروا بأمره. خافوا بطـش المـرأة القادرة لو انحازوا إليه، ولذلك سهلوا للكموني أن يهرب من جديد. تضامنوا معه ضد المرأة. ربما خشوا أن تمـوت ولا يؤول لهم شيء ويحرمهم الكموني من رزقهم الذي يرزقون به في ظل المرأة. وقد عاشوا دهراً عالة علـى المـرأة ولا يعرفون لهم مهنة إلا حراستها وتلبية طلباتها. وإذا ما هـرب الكموني من جديد ينشغلون في البحث عنه ولا يبقون عاطلين أو يصطنعون البحث عنه ولا يبحثـون . أمـا إذا آل إلـى الكموني ذلك العز فقد يسرحهم من خدمته، فيشـردون فـي الأرض. ولو سهلوا له مهمة الهرب والمطالبة بحقوقه وعاد من جديد إلى الضياع المغتصبة باسم الوصية فقد لا يطردهم ويبقي عليهم كسند له وقف معه وقت الشدة. وإذا لم يسـهلوا له الهرب فقد يبقى نافراً منهم، وإذا ما حلت ساعة حكمت لن يجرئوا على رفع أعينهم في وجهه. وقد يطردهم شر طرداً.

وهرب الكموني من المرأة بتسهيل من أعوانها هذه المرة. واشتغل لدى حسنية صاحبة الكازينو والمطعم. وصار يلبـي طلبات الزبائن على دراجة. وافتتنت به حسنية لوقاره وأناقته وحبه للعمل وتزوجته. وأنجبت منه ثلاث بنات هـن عـلا

وأميرة وابتهاج. رغم أنه أحب البنات الـثلاث لكـن حبـه للانطلاق شغله عنهن. وكان الانطـلاق مصـاحباً لإثبـات حقوقه. واكتشف أن كل الأموال التي تضـع حكمـت يـدها عليها هي ملكه. واستخرج ما يثبت ذلك. وعاد الكموني إلى المرأة العجوز هذه المرة لتنقلب الأوضاع حيث تحول الحاكم إلى محكوم واصبح المحكوم حاكماً. وتفرغ الكمـوني لهـذا العمل الجديد. وشعر في لحظة من اللحظات أنه ظالم. يعذب المرأة التي متعته. ويؤلمها وهي في أواخر أيامها. وكانـت تندم لأن حبها تحول إلى رغبة في التملك. وهي الآن تحبـه دون تملك. وتنازلت له عن كل الأموال التي سيطرت عليها رغم أن كل نظمها التي وضعتها لإدارتهـا كانـت سـارية المفعول ولم يعدل فيها الكموني شـيئاً. ورغـم أن أعوانهـا سهلوا له هروبه في المرة الأخيرة غير أن الكموني طردهم. وقد زالت كل كلمة لها عليهم. وبحث الكمـوني عـن أهلـه القدامى. عائلاته التي كونها في الزمن الغابر. لم يجد أثـراً لسنية في بيته القديم. قيل له إنها هجرت الحجرتين لما غاب طويلاً. ولم يجد أنيسة في شقته القديمة بأسوان وعرف أنهـا طلبت التطليق واستجابت المحكمة لها وتعيش في كنف رجل

يرعاها ويرعى والديها ولكن أين يسـكنون؟.. لـم يعـرف. ووجد أن زبيدة ماتت ولم يعثر على النوبي الطيب ليدله عن مكان أولاده منها. أما حسنية فلم يذهب إليها لأنها كانت مـن عينة حكمت. ولو أن حكمت كانـت تسـتبد بثروتـه إلا أن حسنية كانت تستبد بثروتها.

لقد قرر الكموني أن يجمع أولاده وبناته في حصنه المنيع وسوف يرسل إليهم دعوات لذلك عما قريب. "

صار أحمد متأكداً أن كاتب الرسالة ما هـو إلا نصـرت أمين الكموني. فمن يعرف أسماء سـنية وأنيسـة وزبيـدة وحسنية. إنه لم يذكرهم في قصته التي نشرها في الصحيفة. بل لم يشر إلى أسماء أخوته وأخواته من أبيه إنما كان يرمز لهم بالحروف الأولى حتى هو أحمد أمين أشار إلـى نفسـه على أنه أ. ن. أ. ك لم يذكر فقط إلا اسم نصـرت أمـين الكموني. فكيف يعرف كاتب الرسالة هذه الأسماء جميعهـا والقصة كاملة ويوقع بصديق الكموني. وهو لم يذكر أين يقيم الكموني ومتى يرسل دعواته إلـى أولاده وبناتـه؟.. وهـل سيرسل الدعوة لكل واحد منهم على حدة في مواعيد مختلفة أم سيجمعهم كلهم في يوم واحد.

لم ينشر أحمد الكموني تلك الرسالة على اعتبار أنها تعليق على قصته مثلما نشر من قبل التعليقات الأخـرى واعتبـر الرسالة سراً من الأسرار العائلية التي لا يجـوز نشـرها أو إذاعتها.

الرياض في ١٩/ ٢/ ٢٠٠١

المؤلفات:

الكتب السياسية والاقتصادية:

- الرقابة السياسية على أعمال السلطة التنفيذية، مكتبة عالم الكتب بالقاهرة ١٩٨٣.
- العمالة وفرص العمل، كتاب الأهرام الاقتصادي، ١٩٩٨.
- القرارات الاقتصادية بين الفرد والمجتمع، كتاب الأهرام الاقتصادي، ٢٠٠٠.
- الانتخابات، موسوعة الشباب السياسية، ٢٠٠١.
- الدول بين التخلف والتقدم، كتاب الأهرام الاقتصادي، ٢٠٠٢

الروايات والمجموعات القصصية

- اللقمة في يد النساء ١٩٧٧
- بذور ١٩٨١
- وقائع غير مرئية تحت الشمس ١٩٨٧

- لآلئ الزمن الخالي ١٩٧٨
- خذ الحذر ١٩٨٨
- غالباً ما يتفتح الزهر ١٩٨٨
- السفر إلى زمن ميت ١٩٨٩
- بعد فوران الحمم ١٩٨٩
- الدكاكين الصغيرة ١٩٩٠
- لو أعلنت الحقيقة ١٩٩١
- نفحات من العطر المعتق ١٩٩١
- العودة إلى الحياة ١٩٩١
- مازلت أتألم ١٩٩٢
- انقلاب في الثلاثين ١٩٩٣
- الجري وراء الأهواء ١٩٩٣
- الميراث ١٩٩٤
- سلام الذئاب والحملان ١٩٩٤
- المصيدة الكبرى ١٩٩٥

- شقة الهوى والهوان ١٩٩٦ (صدرت بتمويـل مـن اتحاد كتاب مصر)
- الحب بالإكراه ١٩٩٩صدرت في سوريا
- ليالي الزعبلاوي ١٩٩٩ صدرت في سوريا
- ملكة الأرخبيل ١٩٩٩صدرت في سوريا
- دوامة بلا حدود١٩٩٩ في سوريا و٢٠٠٠ في مصر
- الهجرة من المستنقع ١٩٩٩
- مهاجر من إسرائيل ٢٠٠٠
- الهارب من النار ٢٠٠٢
- الخداع يعود بثوب جديد ٢٠٠٢
- فندق الشقاء الأزرق٢٠٠٢
- الميت الحي ٢٠٠٢
- أين الكموني ٢٠٠٢
- المتعة عند الغروب ٢٠٠٢
- الأخوان نار ونور ٢٠٠٢
- حرب الصقور ٢٠٠٤

- لغة بلا كلمات ٢٠٠٤
- بين المهمشين ٢٠٠٤
- الخطيئة والندم ٢٠٠٤

دار النشر الإلكتروني

- مؤلفات سياسية واقتصادية
- الطريق إلى الإصلاح السياسي ٢٠٠٥
- توصيات اقتصادية ٢٠٠٥
- السلطات العامة ٢٠٠٥
- السيادة بين الاقتصاد والسياسية ٢٠٠٥
- قضايا دستورية ٢٠٠٥
- بعض ما جادت به القريحة ٢٠٠٥
- تجديد الفكر السياسي ٢٠٠٦

روايات ومجموعات قصصية

- عبور الخط الأحمر ٢٠٠٥
- ذكريات فضيلة ودليلة ٢٠٠٥

- اعترافات الورد والشوك ٢٠٠٥
- الأهوج٢٠٠٥
- أيامي الأخيرة ٢٠٠٥
- كشف الماضي ٢٠٠٥
- أخبار الشخصيات البارزة ٢٠٠٥
- الاعتقال في الدار ٢٠٠٥
- خسائر ومكاسب الجزء الأول خسائر بلا تعويضات ٢٠٠٥
- الهجرة من المستنقع٢٠٠٦
- المتعة عند الغروب ٢٠٠٦
- أين الكموني؟.. ٢٠٠٦

مسرحيات

- السلطان والصعلوك ٢٠٠٦